كيلة قمح ...

وقصص أخرى

مجموعة حكاوي

تامر حجازي

كيلة قمح
تامر حجازي
تصميم الغلاف: الأستاذ احمد مصطفى
تصحيح لغوي: الأستاذة داليا فاروق
التنسيق الداخلي: تامر حجازي
الطبعة الأولى
تصنيف الكتاب: أدب/ قصص
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر والمؤلف
دار بيوند للنشر والتوزيع
4 ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم 01096900007 Beyond.dbh@gmail.com
www.facebook.com/beyond.PDH
رقم الإيداع: 2018/ 25299
ISBN : 978-9776645-65-3

دار (بيوند) للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

محمد عز الدين

المدير العام

صبرينة غلمي

المدير التنفيذي

جلال عز الدين

- **لوحة الغلاف** للفنان الفرنسي ايوجين الكسيس جيراريديت (1807-1853).
بعنوان "**خارج المسجد**"
Eugene Girardet(**1853-1807**) - **Outside the Mosque**

إهداء

إلى عمنا الكبير، زعيم الأدباتية،
وأمين سر الحكواتية في برمصر
المحروسة وعبر تاريخها، منذ أن
شرع الحلواني في وضع حجر
الأساس، وإلى اليوم ...
إلى ذكراه ...

" خيري شلبي"

إهداء

كنت أخشى أن أقابلك، وأرجئ ذلك إلى يومٍ
أكون فيه جديرًا أن أقف أمامك كابن
يستحق أن تفخر به،
لا مجرد معجب آخر يفاخر أصحابه بنشر
صورتكما معًا على صفحته في كتاب الوجوه.
كنت أرجو أن نجلس يومًا على ذلك المقهى
في طنطا، نتحاور حول كل شيء أختزنه لك،
كنت أحب أن تقرأ لي ...
لكنك لم تمهلني ...
عليك رحمات من الرحمن
دمت أبًا وعرابًا ومرشدًا.

" أحمد خالد توفيق "

تقديم

ذات صباح خريفي بارد مشمس، أعطتني أمي قروشًا لأشتري خبز اليوم، لم أكن قد جاوزت عامي العاشر، لكني أذكر أنني لحظتها كنت جائعًا.. متماهيًا مع رائحة الأرغفة المدعومة الساخنة، أمد خطواتي متعجلاً لمّة الإفطار ....

لكنني صدفة أو قدرًا رفعت عيني فالتقت مباشرة بعيني شابة تبكي ....

كانت تبكي بحرقة وهي آتيه في مواجهتي تقترب، التقت عيناي الطفولية المندهشة بعينيها المقهورتين، أذكر أنني لم أهتم ببكائها ولا بأسبابه، لكنني كنت أفكر في كيفية اختلاف أفكارنا، أنا جائع منتشٍ برائحة الخبز بينما هي حزينة "مقهورة"، وكيف لم تتسلل لي قهرتها ولم تغمرها نشوتي ...

وقفت في وسط الطريق، ودُرت حول نفسي متأملاً مئات الوجوه الرائحة والغادية، كلهم صناديق مغلقة على مكنونها، تمنيت يومئذ لو كانت تلك المشاعر سائبة سائحة فواحة، أن نشعر بعضنا دون الحاجة إلى وصف أو شكوى، قد أتعاطف معك، لكن يستحيل أن أشعر بما تشعر. ولو أقسمت على ذلك.

يومها انجذبت ....

وإلى يومنا لم أزل في تبعات تلك الجذبة، أصبع شغلي الشاغل أن أتوغل داخل الأنفس البشرية، وأصبحت روحي تشق صدرها كل صباح لترسل ما بداخلها إلى الآخرين أو تستقبل ...

حتى أتقنت اللعبة، وعرفت كيف أفكك شفرة الكلمات وشفرة المشاعر، ثم أدمجهما، فتستحيل الكلمات إلى مشاعر طازجة حقيقية...

تعلمت كيف أنقل بالكلمات رائحة الوردة الجورية لمن لم يشم عبيرها مطلقًا، وطعم التفاح الأخضر لمن لم يتذوقه مرة في عمره.

كيف أجعلك تعيش حقًا مشاعر الحب والحقد والبغض والثورة والشبق التي يشعر بها شخص آخر فتصلك غضة طرية طازجة ....

تعلمت ألا أصف لك الأمطار، ولكني أحاول جهدي أن أجعلك تشعر بالبلل...

لن أصف لك الجوع ولا الاكتئاب ولا الفرحة، ولكني سأجعلك تجوع وتكتئب وتبكي وتفرح ...

والآن ....

أضع بين يديك عينة من ذلك. فدعنا نتوغل معًا ونفتح بعض الصناديق المغلقة .... نسافر داخل أنفس وحيوات تعيش بيننا، أو عاشت في زمان غابر، أو مازالت غيبًا، لم يخطر على قلب بشر،

إنها مجموعة من الحكاوي ...

هل هي قصص قصيرة؟

هل هي روايات قصيرة؟

هل تجريب في المطلق؟

أُصدِقُكَ القول، إنني أنا نفسي لا أعرف، لكنني أعلم يقينًا أن بها جزء من روحي وروحك... وأنها ممتعة، وأنك ستعيش في عوالم خيالية أو حقيقية، وتعاين تجارب كأنك أنت صاحبها .....

وهذا عهدي لك قبل أن تبدأ ...

كيلة قمح....

" ...**حاضر يا زينب.**

"حاضر يا زينب". قلتها كما تعودت دائمًا، وكما تعودت زينبُ مني حينما أريد أن أنهي حوارًا مملاً...

أعرف أنها صارت عصبية، لكنني ألتمس لها العذر؛ فزينب ... جائعة!!

- أعلم أنك والصغار جائعون يا **زينب**، فأنا أيضًا جائع مثلكم

- .....

- لست كسولاً يا **زينب**، ولكنك تعلمين أن كل الطرق سدت في وجهي، ولست وحدي يا أم العيال، فجميع رجال بلدتنا مثلي، ولم يعد هنالك ما نفعله في مثل حالة الاضطراب التي تمر بها البلد.

- .....

- إننا نحارب يا **زينب** (افهمي يا أم جهل)، نحارب أقوى جيش في الأرض، ألم تسمعي عن التتار يا جاهله؟ ولو غلبونا

وضاعت مصر المحروسة سوف يضيع الإسلام للأبد، ... أيرضيك أن يضيع الإسلام؟ ".

هكذا قال لنا إمام المسجد يوم أن جاء العسكر ليجمعوا كل شيء: الأموال، والغلة، والرجال أيضًا، لم يعد الحال بعدها كما كان، لكننا ندافع عن الإسلام وعن مصر المحروسة، فيجب أن تتحملي قليلاً، وسوف ينصلح الحال بالتأكيد - بإذن الله- حينما يعود الملك المظفر قطز ظافرًا برؤوس المغول الكفرة الذين أبلغنا شيخ المسجد أيضًا، أن مولانا قد كسرهم كسرة شنيعة بعون الله والمدد من أوليائه الصالحين، ومستمر في مطاردتهم إلى أقصى الأرض

- .....

- ماذا؟ تقولين إنك من يوم أن عرفتني وأنت جائعة؟ "الله يسامحك يا **زينب**"، فهل تزوجتك من "سراية" السلطان؟ لقد كان أبوك وأبي يجوعان معًا، وأقسم أنني مثلهم، ما عرفت الشبع في عمري إلا مرات معدودة، فأنا وأنت جوعى من ظهر جوعى في سلسة جياع تمتد إلى سابع جد يا "ولية"

لست سارقًا، ولا من الشطار قاطعي الطريق، وبالطبع لست مملوكًا يا **زينب**.... فمن سوء حظ آبائي أنهم ولدوا أحرارًا على تلك الأرض ...

...من أين لي بالمال أو الغلة في هذه الأيام السوداء، لقد توقفت الأعمال، وجفت الزراعات، فلم يعد أحد يطلبنا فيها للعمل بالأجرة، ولست من الأعيان حتى تكون لي أرض نزرعها ونأكل من خيرها، ما يسري على الناس يسري علينا يا **زينب** فأهدأي حتى يأتي الفرج

"خلاص، اهدأي ... سوف آخذ حماري وأستعين بالمولى، و أهبط المحروسة، ولابد أنني سأجد هناك عملاً، فهي تعج بالآلاف مثلي، ومن يرزقهم لابد سيرزقني، وإن كان ذلك؛ فلسوف أعود لكم في الليل ومعي كيلة من القمح، ومن يدري ؟ ربما وفقني الله وأحضرت معي بعض الفاكهة أو حلوى الكنافة ...

لا تعرفينها؟ إنها أطعم أكل في الدنيا يا **زينب** ... أكلتها عدة مرات عندما كان والدي يأخذني لمولد السيدة أم هاشم،

إنه زمن بعيد يا أم العيال، كنا وقتها في ولاية مولانا الملك الصالح أيوب، لقد كان عهده رخاء رغم أننا كنا دائمًا نحارب كالعادة،

لا أدري أهم الفرنجة وقتها أم الشوام؟ أحاول أن أتذكر وقتًا لم نكن نحارب أحدًا ما، فلا أجد ...

أتعرفين؟ لقد أحضر لنا أبي اللحم عدة مرات في تلك الفترة...

- .....

- ماذا؟ لم تعرفي ذلك؟ ومالي أنا إن كنتِ طوال عمرك" فقرية أنتِ وأبيكِ " أنا من بَيْت عز يا **"ولية"**

- .....

- اهدأي يا أم العيال، أنا أمزح ...

توكلنا على الرزاق الكريم، أنا نازل مصر، ادعِ لي وحياة النبي محمد "

...

هأنذا أضع البردعة المحشوة باللوف، على ظهر الحمار القابع في ركن دارنا، كأنه فرد من العائلة، وهو حمار ذكر من سلالة عائلية، فأبوه وأجداده خدموا أبي وجدي وأعمامي بإخلاص لأعوام ...

وكان في خطتنا أن أعمل عليه مكاريًا عندما تنتظم الأحوال ويعود البيع والشراء، بعد الحرب ...

أعرف طريق المحروسة جيدًا؛ فقريتنا بالقرب من قليوب تبعد ما بين صلاة الضحى، إلى ما بعد صلاة الظهر بقليل بالحمار، وأقل من ذلك بكثير أن قدر لك أن تمتطي بغلاً عفيًا، أو فرسَ عدو...

فقط "خَلِّي" بحر النيل على يمينك، ويمم وجهك شطر المحروسة، سوف تعبر غيطان شبرا، لتصل إلى قرية بولاق وتعبرها، وتستمر في نفس الاتجاه وقبل أن تصل إلى جزيرة

الروضة، ثم تنحرف يسارًا حتى تطل عليك بركة الفيل، وحتى تتبين لك أسوار القاهرة، وتطالعك قلعة الجبل شامخة...

... يبدو أنني اخترت يومًا مشهودًا لدخول المحروسة، الخلق يتحدثون أن موكب الملك المظفر قطز قد عاد اليوم منتصرًا، حاملاً معه أسرى التتر الكفار، وغنائم لا حصر ولا عد لها.

توجهت من توي إلى ناحية القلعة لأتفرج مع باقي الخلق، ربما "ينوبني" من الحب جانب، من يدري؟

يا لها من أعداد!! كأنه يوم الحشر، والقلعة زينت بالبيارق، وتزينت الطرق، وأغلقت الحوانيت والوكالات ...

لا يبدو أنني سأجد عملا اليوم "حظك يا **زينب** يا فقرية"، وطالما لم نجد عملاً فلنتسلى إذا ...

أحاول أن أرى وأستوعب كل شيء، سوف أكون نجم السامر لشهور في البلدة، ولسوف يجتمعون حولي لأعيد عليهم مرارًا وتكرارًا ما حدث، وما رأيت في

هذا اليوم المشهود، وربما أظفر بكوب قرفة أو ينسون مجاني

سحبني من أفكاري هرج ومرج الناس عندما بانت أصوات الطبول والكوسات الضخمة، كان صوت طبول السلطان أشبه برعد هادر بلا مطر ولا برق.

كان الصوت يعلو كلما تقدم الموكب آتيًا من ناحية الصحراء، وماهي إلا برهة حتى ظهرت البيارق السلطانية عالية، انخرط الخلق في الهتاف للملك المظفر ووجدتني أهتف معهم بحرارة ...

ثم فجأة انتشر اللغط وتداخلت الأصوات، ولم أدر ما يحدث، ولم يكن أحد - ممن وقفوا بجانبي – يدري، فقط صار الخلق يتدافعون، ثم بالتدريج انتظمت الأصوات بالهتاف باسم الملك الظاهر بيبرس البندقداري، اختلط عليّ الأمر هل نهتف للمظفر أم للظاهر، ولما استمر الهتاف للظاهر وجدتني أهتف معهم ولم أجد

فرقًا، ولو كان هولاكو نفسه على رأس الموكب لهتفت معهم.. فأنا في كل الأحوال أهتف على لحم بطني ...

لا يدري أحد ماذا حدث، فبعضهم يقول إن الملك المظفر قتله التتار الملاعين ومات شهيدًا، وبعضهم قال إنه سقط عن حصانه في رحلة العودة، ولكن بعض الخبثاء تحدثوا بثقة أن الظاهر قتل المظفر، وركب على حكم البلاد ... وعندما سألني عم سمعان الذي كنت معتادًا أن أربط حماري أمام دكانه في خان النحاسين؛ أجبته بأن الأمر لا يعنيني؛ ...

فأنا يشغلني فقط كيف أحصل على كيلة قمح لزينب والعيال الجوعى، الذين اخضر جلدهم من أكل السريس، الجُعْضِيض والحُمِّيض....

أخبرني عم سمعان أنهم يمدون السماط الملوكي في القلعة، وأن الأمراء والمماليك والأعيان كل يمد سماطًا على قدر طاقته، وأخبرني أن اتجه إلى أحد هذه الأسمطة، علّي أحصل على بعض الأرز واللحم للعيال **"بركاتك يا أم هاشم"**.

هرولت بحماري حتى وجدت أحدها على مشارف حي الجمالية

كان الخدم يحملون آنية اللحم، و (طشوت) الأرز والفتة، وقد بانت رائحة (هبر) اللحم الناضجة من بعيد، حتى طيرت ما بقي من عقل في رأسي، فنزلت من على الحمار مهرولاً ... ويبدو أنني لم أكن وحدي...

فبجانبي ومن حولي كان العشرات يهرولون نحو اللحم، لم يعد بداخلي أي تفكير، سوي الحصول على بعض الطعام، نسيت العيال **وزينب** ولم أعد أتذكر إلا كوني جائعًا...

لا أعتقد أن معركة الملك الظافر أو الظاهر - أيًا كان - مع التتر كانت بمثل ضراوة معركتنا على اللحم والأرز، تحول الجميع إلى ذئاب جائعة تتهارش فيما بينها حتى خفت أن بعضهم قد يأكلني حيًا، لولا أنني تملصت من بينهم كذيل البُرص، واستطعت الحصول على قبضات من اللحم والأرز، ملأت بها حجر جلبابي، قبل أن يبدأ الجند بتفريق الجموع، بسياطهم

التي يقال أنهم يقومون بنقعها لشهور في زيت الشطة، لم أهتم بطرف السوط الذي يبدو أنه مزق جزءً من لحم ظهري، فقط ... كان اهتمامي الوحيد منصبًا على القبض على ذيل الجلباب بيدي وأسناني، كيلا تضيع الغنيمة، وبالفعل خرجت من الهوجة منتصرًا إلى حيث تركت حماري، ولكن ....

أين ذهب الحمار؟!!

كان الطريق طويلاً إلى بلدتنا، وأنا أقطعه حافيًا بعد أن ضاعت فردة مركوب، والأخرى علقتها في رقبتي كشاهد على غبائي، وأنا قابض على غنيمتي في حجر الجلباب، وظهري ملوث ببقعة دم اتسعت ثم تجلطت وتجمدت أثناء الطريق، فصار فصل القماش عن اللحم شبه مستحيل، لم يكن يدور بخاطري إلا تأنيب **زينب** عندما تعرف أني ضيعت الحمار....

كم كنت مغفلاً، "لكنها رائحة اللحم يا زينب ... وأنَّى لك أن تعرفي رائحة اللحم يا "بنت الفقرية"

كان الليل يوشك أن ينتصف حينما دخلتُ قريتنا التي غلفها الظلام، فصنع من أشجارها مردة وعفاريت مرعبة ... لم أكن خائفا من الجن والعفاريت فلابد أن حالي سوف "يصعبُ" عليهم إذا أمسكوا بي....

..فقط ... كنت خائفًا أن تشم الكلاب رائحة اللحم الناضج الذي لابد أنها أيضًا محرومة منه مثلنا، لكن "ربنا ستر"

كانت البلدة تلتحف برداء الليل الأسود، وينام أهلها الجوعى بين رائحة الزرع وروث البهائم الهزيلة في بيوت الطين، كما تعودوا منذ خلق الله الخلق، على أمل أن يجدوا في الصباح ما يسد رمقهم ليواصلوا يومًا جديدًا في حربهم مع الجوع، ويومًا يجرُ يوم حتى يقابلوا ربهم جائعين ....

عرفت طريقي في الظلام" بالوَيَم "على ضوء النجوم، حتى ظهر باب بيتنا الخشبي المتشقق، الذي طالما سترنا... أمسكت بالمطرقة المعدنية المعلقة فيه وطرقته بآخر ما بقي فيَّ من قوة.

فُتح الباب وبان من ورائه السراج، ومن وراء السراج بانت **زينب**... أسندتني عندما دخلت مترنحًا، وهي تبسمل وتحوقل في ذعر صارخةً

"مالك يا خويا ؟؟"،

... **تسألين مالي يا زينب؟؟! ... لو كان لو كان لي مالٌ، ما صار هكذا حالي يا أم العيال**

...أخبرتها بصوت يتحشرج، أن توقظ العيال قبل أن يفسد اللحم، وأفرغت جلبابي على الحصير، وسط دهشه **زينب** والأولاد، وانبهارهم بطعم اللحم مع الأرز، ربما ظنوا أنهم مازالوا نيامًا يحلمون،

"...إنه أكل الأكابر يا أولاد الفقرية."

اشتعلت النار في ظهري حينما حاولت أن أتكوم جالسًا، مستندا إلى جدار الطين الخشن ... تذكرت وسط ألمي الحارق أني لم أتذوق شيئًا من اللحم ولا الأرز طوال الطريق، لقد نسيت نفسي ... لكن **زينب** تذكرتني...

...مدت لي يديها المملوءتين "بحفان" من الأرز وقطعة لحم، فمددت يدي لأتذوق اللحم، لكنها سقطت عندما غلبتني عيناي بعد أن غالبتهما طويلا... فأجهشت بالبكاء كطفل فقد أمه في زحمة مولد السيدة ... شدتني **زينب** - التي نسيت الأكل هي الأخرى - إلى حضنها في لهفة أم و"طبطبت "على ظهري النازف وأنا أزعق مرارًا جملة واحدة

- **سرقوا الحمار مني في مصر يا زينب...**

سرقوني في مصر يا زينب ...

القبو...

.....من المؤكد أن تلك الليلة كانت من أكثر الليالي سوادًا وعتمة خلال شهر أمشير الذي أوشك على الرحيل بعواصفه غاب القمر تمامًا، واختبأت النجوم تحت غيوم كثيفة حاول الفجر إزاحتها بشفقه الأحمر بازلاً كل جهدة لتحريك تلك الجبال الراسخة من الظلمة والضباب بإصرار متمهل ... .

أحكمتُ ردائي فوق كتفي اتقاءً للسعة البرد - التي لم تعد عظامي تتحملها- بينما يعيد الجندي المتشكك فحص الزكائب التي أجلس عليها هادئًا في استكانة، وأنا أعيد عليه مبتسمًا أسماء الحبوب والعطارة التي جمعتها من أنحاء مصر، متوجهًا الى روما عاصمة العالم...

ولم يتركني حتى أهديته - كما فعلت مع جنود الميناء قبل الصعود - قليلاً من مسحوقي الأبيض النادر، أوصيته - وأنا أغمز بعيني في مجون وبلغة رومانية دارجة:" أن يشربه في المساء قبل أن يلقى امرأته مباشرة، والتي لابد أن جيرانه سيسمعون صراخها طوال الليلة، قبل أن تقسم بحياته في الصباح.

وما أن انتهى حتى أسرع قافزًا من المركب المتهالك - وهو يشير لي بامتنان – ويوصي عليَّ الربان والبحارة، بينما نغادر ببطء ميناء الإسكندرية المزدحم بالبضائع الصادرة والواردة من وإلى كل بلاد العالم المأهول، رغم الأحداث الملتهبة في ذلك الوقت...

ملأت عيني وصدري من الإسكندرية وهوائها للمرة الأخيرة؛ فرغم كوني معتادًا على تلك الرحلة من الإسكندرية الى روما وبالعكس، ولكن اعتدت السفر في سفن ملكية محاط بما ينبغي لي من الحراسة والتشريف، لكني موقن هذه المرة أنه فراق للأبد.

استرحت في جلستي... ثم تلمست بكفي حمولتي الثمينة في حنوٍ وإشفاق، إنها صفقة تستحق أن أدفع آخر ثانية من عمري في سبيلها.

أدرت ظهري للميناء وتأملت الأفق، الذي بدأ يتألق بقرص الشمس النازف (**رع الصاعد في رحلته السرمدية نحو الغرب**).

وكالعادة كلما تأملت الشمس وضياءها، وقع عقلي في فجوه سحيقة من الذكريات التي لا خلاص منها ما دمت حيًا، ولا أود أنا أخرج منها أبدًا ...

يبدو أنني شيئًا فشيئًا أتعود على العيش في تلك الخيالات، بينما يتناقص تفاعلي مع العالم الحقيقي.

"هل أنا على حافة الجنون؟ أو على وشك أن أصير فيلسوفًا؟ لا أدري حقًا.... وإن كنت أعرف يقينًا أن أيامي الباقية في دنياهم لا تسمح لي أن أصير هذا ولا ذاك"...

كانت كل خيالاتي تدور حولها- وحولها فقط - فكأنما انمحت من عقلي أي نقوش تدل على أن

كانت لي حياة قبلها، كما لم تبق لي حياة بعدها إلا من أجل تكريس وفداء روحها المقدسة، فساعة تلو أخرى يضمحل ارتباطي بعالم الأحياء، فيعيش ذهني بالكلية في عالم الخيال حيث الذكريات والأحلام والأوهام تمهيدًا لانتقالي لعالمها النوراني الخالد.

"فما كنت إلا فراشة دارت حول نور نيرانها المقدسة الخلابة لبرهة من الوقت حتى احترقت ... لكنني أحببت احتراقي فيها".

حاولت مرارًا أن أفهم ما السر وراء تلك الفتنة التي تحيط بها وتتسلل إلى الكون من حولها، لتجعل الجميع - بمن فيهم أنا - يسقطون صرعى تحت أقدامها الى درجة التقديس....

لم تكن أبدًا رائعة الجمال، حتى أنها لم تكن في جمال "نفر أمون" كاهنة المعبد، ولا "أدماريس" وصيفتها المقربة.

لكنها كانت تمتلك تلك الهالة الخاصة كخيوط عنكبوت ممتدة إلى ما لانهاية، شبكة محكمة لا تراها أعين البشر

لكنها تلتصق بقلوبهم وأرواحهم في تشبث عجيب، كأن إيزيس وفينوس وعشتار، سخرن جميع قواهن الإلهية في جعلها كارثة كونية لا سبيل للفرار منها.

حتى أن صاحب العظمة اللانهائية - القيصر نفسه - لم ينج منها ... ذلك الطاغية الذي سجدت له روما، بعد أن أخضع اليونان والجرمان، والغال، ووحوش هيسبانيا، وجبابرة سوريا، وأسود مصر...

انهار عند لقائها، وشاهدته بأم عيني مرارًا يركع حتى يلثم طرف ثوبها، وهي تبتسم له في حنو متعالٍ، كأنه عبدها الآبق المعتذر!!!

وقتها كنت في بدايات عملي كمستشارها الشخصي، بعد سلسلة من الترقيات بدأت منذ أن تم اختياري ككاتب ضمن عشرات الكتبة في القصر...

كنت قد خرجت لتوي من ظلمات سراديب معبد آمون المعظم، وأروقة مكتبة الإسكندرية أعجوبة كل الأزمان...

تخرجت محملاً بعشرات الآمال الكبار التي من شأنها أن تغير العالم. لكنني أدركت أن مصيري مرتبط بمصيرها، منذ وقعت عيني عليها وهي تضحك في موكب وصيفاتها داخل ممرات القصر، ثم تتوقف لتنظر في تمحيص إلى الصف الساجد أمامها في خشوع، والمتكون من عشرة متمرنين جدد، أنا أحدهم...

ثم تكلمت فأشرقت شمس "بؤونة " الحارة الحارقة في صدري دفعة واحدة، ولم تغرب للآن، ولا حجبها ظل... وصدحت ألحان تتفوق ألف مرة على عزف عذارى المعبد على الهارب الذهبي الذي أودعته الآلهة القديمة في قدس أقداس آمون ...

لم أكن جاوزت السابعة عشرة بعد، وكنت أعرف أنها تكبرني بعدة أعوام، وأنني ممنوع من النظر إلى بهائها الملكي مباشرة،

لكنني رغمًا عني رفعت رأسي قليلاً، فالتقت عيناي بعينيها اللتين يتفجر منهما شلالاً من الذكاء والفتنة التي لا تليق إلا بالآلهة... كأنهما قادرتان على اختراق أحشائي والنظر إلى قلبي المرتجف مباشرة. وقتها رفعت حاجبها الأيمن في دهشة وابتسمت لجرأتي، بينما المعلم الراكع على ركبتيه بجواري يضغط رأسي في حزم، حتى لمست جبهتي الرخام البارد، وسمعت ضحكاتها تبتعد إلى أن أُمرنا برفع رؤوسنا وسط تقريعه وغمزات زملائي.

بعدها ولعدة أشهر تم اختبارنا جميعًا، حيث اندهش المعلمون من قدرة ذلك الفلاح الذي سلمه أبوه إلى المعبد ليوفر لقيماته وكسوته، **"فالاختفاء في غياهب معبد آمون، خيرٌ بالتأكيد من الموت جوعًا في قريتنا"**.

اندهش الجميع من قدرتي على تنميق الكلام والوصف، ومعارفي المختلفة التي حفظتها وهي تسقط صافية إلى عقلي - الجائع دائما للمعرفة - من أفواه الكهنة المقدسين في

المعبد، ومن عقول فلاسفة اليونان البارعين، وسط آلاف المخطوطات في مكتبة الإسكندرية ومدرستها.

فتراكمت داخلي كل تلك العلوم بينما تسربت من عقول الرفاق يومًا بعد يوم.

صرت ماهرًا في الحساب، والهندسة، والمنطق، والفلسفة، وأحفظ عن ظهر قلب تاريخ ملوك اليونان وروما وفارس ومصر منذ عهد (مينا- نعرمر)، وفي مختلف العصور التالية، وما حدث في كل عصر من أحداث ومؤامرات وحروب.

أعرف أصول الزراعة، والمحاجر، والتنجيم، والقليل الكافي من الطب، وقراءة النجوم، وتفسير الرؤى ...

كما أتقن لغتنا المصرية وأكتبها بمختلف طرقها المعقدة، وبحروفها المختلفة، ومعها أتقنت اليونانية والرومانية والآرامية والفارسية، ولغة اليهود وعرب الصحراء، وأتحدث بكل تلك اللغات كواحد من أهلها ...

... وعندما أعلنوا نجاحي وحدي في الالتحاق بالكتبة كنت أرغب أن أجري فأسجد عند قدميها مرة أخرى، وأخبرها أنني أنا وهي يظلنا الآن سقف واحد، رغم كونها الملكة /الشمس، وريثة الفراعنة العظام وسليلة آلهة الأوليمب في آن واحد ... بينما أنا ابن (**توت**) الفلاح السقيم، الذي ظل يبول دمًا حتى مات في داره ولم يعبأ به أحد ...

بعدها كنت آخر ساجد كلما سمعت صيحة الحرس لمرورها، أتخبط وسط فوضى ما أحمله من قراطيس وأقلام ومحابر، بينما أسمع ضحكاتها كلما رأتني، ورنينها يخبرني أنها اطَّلعت على قلبي وعرفت سري الصغير/ الكبير...

سنوات مرت ازددت فيها خبرة وحكمة، ومعرفة بسياسة الدولة، وازدادت فتنتها وتكامل بهائها حتى صارت شمسًا حقيقة تحرق وتعمي الناظرين.

وذات يوم رائق كُلفت بالمثول أمام عرشها في يوم عيد آمون، وألقى الحاجب عليّ كلمات تفيد بترقيتي كاتبًا خاصًا ومترجمًا للعرش الملكي المصري...

كنت قد جاوزت الثلاثين فيضانًا وكانت تزيد قليلاً عن سني، وقتها سمح لي برفع رأسي والنظر إلى الفرعونة من وضع الركوع.

مادت الأرض بي إذ التقت عيناي بعينيها مباشرة فمن يتحمل النظر للشمس في عليائها؟ حتى أن مستشار العرش أسندني، وهو يلكز أضلاعي زاجرًا، بينما ظهرت لمحة إشفاق وسط ملامحها التي لابد أن تكون صارمة تحت التاج الفرعوني...

بعدها صار طبيعيًا أن أجلس مقرفصًا تحت العرش أثناء انعقاد مجلس الحكم، وبيدي لفافة البردي وعدة الكتابة لأدون كل ما يحدث وما يقال، ثم أعرضها على المستشار الأول في المساء، فيبقي على بعضها، ويأمر بمحو البعض، فأقضي ليلتي في تبييض وتحبير ما كتبت باللغة المصرية واللاتينية، ثم

أسلمها في الصباح لتُحفظ مع أخوتها، في قبو الوثائق أسفل القصر...

ثم ترقيت مرة أخرى، لأصبح كاتب رسائلها الملكية، فكانت تملي على ما تريد وأنا أترجمه لأية لغة تبعًا لمن تراسله، في البداية كنت أتحرج وأنا أخبرها مترددًا أن نقوم بإحلال كلمة محل الأخرى، أو نغير صياغة إحدى الجمل، لتوضيح المعنى والقصد، فكانت تستعذب كلماتي وتقرني عليها...

ثم صارت مع الوقت تخبرني شفاهة بما تريد، وأعيد نظمه وترتيبه بأسلوبي الأدبي كما ينبغي أن يكون.

ومع الوقت أيضًا- وببركة إيزيس- صرت من القلة المحظوظة، التي يسمح لها بدخول مخدع الملكة، عند استدعائي في أي لحظة ليلاً أو نهارًا.

شعرت وقتها أن منتهى أملى قد تحقق، وهي تخبرني بما تريد بينما تتمدد في استرخاء كغيمة صيف متألقة على أريكتها الناعمة، بملابس المساء الشفافة، كلما خطر لها أن ترسل

رسالة أو تحرر أمرًا ملكيًا، يسري على كامل أرض النيل طولها وعرضها.

بل أنها أحيانًا ما كانت تتوقف عن الاسترسال لأخذ رأيي في بعض أمور السياسة وإدارة المملكة؛ بعدما تبين لها رجاحة آرائي معظم الأحيان...

أصبحت محل حسد الجميع، ومسقط عيون سكان القصر؛ لكوني أمسيت مستشار الملكة وحافظ سرها. فكنت أتجاهلهم متعاليًا، بينما أقضي جلَّ نهاري وبعض ليلي، بين قاعة العرش ومخدع الملكة، أو القبو وغرفتي التي تم تخصيصها لي ولأدواتي وصناديق كتبي العديدة...

أما باقي الليل فكان لي ولها... إذ تعودت أن أطفئ السراج، ثم أحلم يوميًا أنها تتشبث بيدي، بينما نجري معًا على شاطئ البحر، أو نغوص في مياه النيل الحمراء منبع الخصب في أرحام النساء والفحولة في أصلاب الرجال.

أو أنقذها مرارًا من وحوش أسطورية، وثعابين يطلقها (ست) إله الشر، تريد التهام قلبها، وينتهي الحلم دائمًا بها مستسلمة في حضني، وبين زراعيَّ...

بالطبع لم أتزوج ... فلم تخلق امرأة بعدها قادرة على إشعال رجولتي، بينما تنحفر صورتها على عيني وتمحو منها كل ما يمت للنساء بصلة...

.كنت أصلي كل مساء إلى آلهة المصريين جميعهم، وأحيانًا إلى آلهة الأوليمب، معبودات معبودتي، ليبقى الوضع كما هو.

لكن يبدو أن الآلهة، كان لها رأي أخر ...

ففي لحظة نحسة، انقلبت الدنيا رأسًا على عقب، بينما سفن القيصر تقصف الإسكندرية بنيرانها وحديدها ...

ويومها سقَطتُ باكيًا حتى غبت عن الوعي حين سمعت أن المكتبة احترقت عن آخرها، واحترق معها كل تراث الأجداد الذين أفنوا أعمارهم من أجله، وعندما أفقت كان الجنود

الرومان يحيطون بالقصر، بعد أن استسلمت حامية الإسكندرية ... بينما الجيش في منف أمامه عدة أيام ليصل بنجدته، وإن وصل فلا قبل لنا بجيوش روما... وقتها قررت الملكة عقد المعاهدة.

وفي مساء نفس اليوم شاهدت الرجل المهيب (القيصر يوليوس المعظم) بينما تذوب نظراته في فتنتها، وترتجف يداه شوقًا إلى مس بشرتها المضيئة، عرفت وقتها أن سيدتي قد أحكمت سيطرتها على مصر واحتلت روما ... !

لكن الأمور لم تعد كما كانت أبدًا، لم تعد مصر هي مصر التي عرفتها طوال عمري الذي تجاوز الأربعين...

ففي خلال أسابيع تم إقصاء المستشارين المصريين والبطالمة وحل محلهم الرومان، الذين انتشر جنودهم في الأسواق والحقول، بفظاظتهم وغطرستهم التي لو ألقيت في ماء النيل لفاض ماءً مالحًا منتنًا قبل أوان فيضانه.

كنا قد تعودنا على الإغريق أهل اليونان منذ أزمنة موغلة في القدم، ألفونا وألفناهم، فرغم اختلاف الشكل والعقيدة، كانوا يحملون الكثير من طباعنا، بل أن معظمهم صار يتكلم بلساننا في طلاقة سواء كان من البطالمة الحكام أو من غيرهم من أهل أثينا وإسبرطة ومقدونيا...

لكن هؤلاء الرومان بحروفهم الممطوطة، وأصواتهم المرتفعة، كانوا أجلافًا بحق. وكرهتهم منذ أن وقعت عيني على أول كلب منهم دنست أقدامه رخام القصر...

وبينما اختفى المستشارون تدريجيًا، أصرت الملكة على بقائي في خدمتها، بل أن القيصر نفسه صار معجبًا بعملي، لا سيما حينما ألقيت على سمعه بعض قصائد هوميروس وسفوكليس، مترجمة إلى الرومانية في فصاحة تصعب على بعض الرومان أنفسهم.

كنت كل يوم أزداد يقينًا أن أصابع الملكة أحاطت روما بالفعل ولم تغن شيئًا - أمام فتنتها- تلك الجحافل

المدججة بالسلاح، خاصة بعد أن أنجبت له ولي العهد (قيصرون)...

بينما أصبحت مصاحبًا لها حتى في سفرها إلى روما، التي وَلْدَت غصة في صدري، فشتان بين حضارة تزدهر وأخرى تضمحل... لكن الملكة لم تستطع الاستغناء عني وعن نصائحي في كل شيء، بدءً من أمور السياسة الشائكة، إلى تعين وصيفاتها، واختيار عطورها .

كانت الأمور مستقرة، لكنها انقلبت مرة أخرى حين جاءنا خبر اغتيال القيصر بمنتهى الخسة، وتصارُع أتباعه على ملكه ودمه...

وكانت خطيئتها الكبرى، أن وضعت يدها في يد ذلك الأرعن المتخاذل (ماركوس أنطونيوس) وملكته من كل شيء في مصر ... حتى نفسها ...

كنت أريد أن أمسك بكتفيها فأهزهما صارخًا أن تفيق من ذلك المسار القاتل، الذي تورطت وورطتنا فيه،

فالحكمة والسياسة كانت تقتضي التحالف مع منافسه (أوكتافيوس) ربيب القيصر المسيطر، لا سيما أنه يحتفظ تحت يده بولدها قيصرون الوريث الشرعي لعرش روما...

لكنني لم أجرؤ، ولم تستمع أبدًا لنصائحي في هذا الأمر بالذات، بل بدأت تتجاهلني معظم الوقت حتى توقفت عن الاستماع لي نهائيًا...

وللمرة الأولى أشتعل بالغيرة وأنا اشعر أنها تهيم حبًا - هي الأخرى - بذلك الطاووس عالي الصوت.

كدت أبكي وأنا أرجوها في ضراعة ألا تشترك معه في معاركه، لكنها تعاملت معي بمنتهى الفظاظة، وطردتني خاسئا من مجلسها، لأنزوي في القبو لأسابيع، منكب على تنظيم وتنسيق ما لم يحترق وما تم إنقاذه من المكتبة، وتم تكديسه في القبو منذ أوان حريقها المشؤوم ...

حتى جاء الصباح الذي سمعت فيه الجلبة، وشعرت باضطراب القصر، بينما ينقل الحراس كل ما هو غالٍ ونفيس، إلى مخابئ خارجية معدة سلفًا، وتمضي

الجواري والوصيفات باكيات في ذهول، بعد أخبار الهزيمة المنكرة للأسطول في (أكتيوم)... بينما الناس في شوارع الإسكندرية يرقصون على نصر كاذب أشيع فيهم لنتجنب ثورتهم...

يومها قادتني (أدماريس) سرًا إلى مخدع الملكة... كانت سيدتي ثائرة الشعر... غارت عيناها وتضخمت ملامحها من أثر البكاء. ...

خررت على ركبتي باكيًا لمنظرها فهالني أنها أمسكت كلتا يداي في تشبث ضارع قائلة :

_انتهى كل شيء يا رفيقي الأمين، ليتني اتبعت رأيك ... لم يعد لي غيرك أثق في إخلاصه وولائه لي داخل هذا القصر، الذي يموج بالخونة من كل الأجناس... وأرجوك أن تساعدني وتكتم سري...

تحشرج صوتي وخرجت كلماتي مبهمة من خلف شلال دموعي وأنا أقسم أن أحميها بروحي أيا كان الخطر، وأطمئنها وأنا أرتجف من داخلي حبًا وخوفًا، فأردفت:

- أريد أن أهرب الى خارج القصر في سرية تامة... هل تعرف الضابط (سيفروس) ساعد (ماركوس) الأيمن وصديقه؟

أومأت برأسي إيجابًا، فأكملت:

- إنه يختبئ الآن بفرقة صغيرة في أجمة جنوب الأسكندرية ... كنا قد أعددنا العدة للفرار الى منف وحاميتها المصرية، لقيادة المقاومة إذا ما اقتضى الأمر... ستذهب إليه سرًا، وتأتي به إلى مكان محدد خارج القصر، وترجع بأقصى سرعة، لنتسلل إليه معًا....

كأنما شقت قلبي نصفين، حين نطقت كلمة (معًا)، وبدون إرادة مني وجدتني أجذبها إلى حضني كما حلمت بها طوال عمري، فلم تعترض واستكانت في وصله بكاء ملتاع، كطفلة مرتعبة في حضن أبيها الذي أغرق شعرها بدموعه، وعطرها يتسلل ليملأ أحشائي بالطيب إلى الأبد...

تركتها وهي تنظر لي في امتنان من بين دموعها، وتوجهت إلى حيث تكمن الفرقة فوجدتهم متأهبون بالفعل، انتحيت (بسيفروس) جانبًا وأخبرته أوامر الملكة؛ فأسرع يأمرهم

بالتحرك في أقصى سرعة، وأفرد لي فرسًا سريعًا إلى جانبه، كان مخصصًا لركوب (ماركوس أنطونيوس) نفسه...

في المساء كنا على مشارف القصر، فتوارت الفرقة في الدغل القريب، وتسللت مسرعًا إلى حيث معبودتي فوجدتها مستعدة، إذ ارتدت ثياب الفلاحات الخشنة، وتلثمت فاخفت فتنتها، وإن ظلت عيناها كسلاحين قاتلين يمتدان أمامنا.

حملت مشعلي وتسللنا إلى القبو ... كنت أعرف سردابًا يلقي بنا خارجًا بالقرب من الفرقة...

لفحنا هواء البحر المشبع بالملح ودخان السفن المحترقة، ونحن نسير مستترين بالظلام، إلى أن رأينا المشعل الخافت الذي أوقده (سيفروس) فهرعنا نحوه...

كان الجنود ملتفين حول النار، فما أن شاهدوا أشباحنا، حتى وقفوا جميعًا، وشدوا أجسادهم احترامًا لحضور الملكة...

فكت لثامها وأعطت أوامرها بسرعة التحرك، وهي تتجه إلى الفرسة البيضاء المجهزة من أجلها، لكنه أمسك ذراعها قائلاً وسط دهشتها العارمة من جرأته على لمسها.

_ليس بعد يا سيدتي.

ومع نهاية جملته انقض عليّ أربع جنود فكبلوني لأركع وسطهم، بينما أحاط بعضهم بالملكة مستلين سيوفهم، وخرج من خلفهم (ماكسينتيوس) أحد قادة (اوكتافيوس) المنتصر، الذي يبدو أنه سبق الأسطول في مركب خفيف، لعقد هذه الصفقة القذرة....

اقترب منها بينما أمسك الجنود ذراعيها، وأجبروها أن تركع على ركبتيها أمامه، وهي التي لم تركع من قبل ... حتى للآلهة.

لم تصرخ فيهم، لم تتكلم مطلقًا، فقط كانت ترميهم بنظرات حارقة - كأنها ميدوسا - تجمد الدماء في قلوبهم، لكنهم كانوا مخلوقات بلا قلوب...

بينما كنت أصرخ فيهم وأسبهم بأفظع ما يمتلك لساني من سباب بالمصرية والرومانية ... حاولت النهوض لكنهم بطحوني أرضًا وانهالوا على بأحذيتهم المسننة.

ساعتها فقط تمنيت لو أننى أستبدل كل علومي، وما أتقنت ودرست في حياتي، وأحصل بدلاً منها على القوة وقدرة القتال ...

..."لو كنت مقاتلاً لما احتاجت إلى من يحميها غيري في فرارها الحتمي ...

...لو كنت أعلم القتال لأفنيتهم الآن جميعًا بسيفي وخنجري، وفرشت مآقي أعينهم أمام سيدتي لتطأها على مهل ... لكنني للأسف كنت مجرد كاتب لا يجيد القتال.

أنا مجرد كتلة من اللحم اللزج، تسيل من ثقوبها الدماء وبواقي كرامة مهدرة تحت أقدامهم... كنت أصرخ كأم ثكلى أن يتركوها لي ويأخذوا القصر والملك ومصر والنيل والأهرام وكل شيء.

"فقط اتركوها هي ... أريد المرأة لا الملكة

...فاليوم فقط تحقق حلمي، بحق الآلهة لا تستبدلوه بهذا الكابوس "...

لكنهم سخروا مني وألقوني أرضًا لتدهسني أحذيتهم الثقيلة حتى لم أعد قادرًا على الصراخ.

ثم تقدم منها (ماكسينتيوس) قائلاً في تأدب ساخر...

- **آسف يا مولاتي. فالأوامر تحتم أن ينتهي عهد البطالمة الآن، وهنا....**

قالها وهو يخرج قنينه يميل لونها للأزرق، أصغر قليلاً من كف يده، وهو يستكمل :

- **لدي أوامر من سيدي (أوكتافيوس) أن يبدو موتك انتحارًا حتى لا نثير العامة وتنتقل السلطة في هدوء.... وبهذا يضمن لك أن تحافظي على جمال وبهاء جسدك الملكي.**

وسوف نعلن أنك أنهيت حياتك بنفسك، نائمة في مضجعك. بين بتلات الأزهار، وفي هالة من الوقار الملكي...

كما أنه يبلغك أن ولدك "قيصرون" سيكون في حمايته إلى أن يبلغ مبلغ الرجال...

تغضن وجه الملكة الصارم لثانية ثم عاد لجموده المتعال. فاستطرد الآخر:

- **. بينما لدي أوامر معاكسة من سيدتي "أوكاتفيا" أخت القيصر "أوكتافيوس "، وزوجة عشيقك الراحل سيدي "ماركوس أنطونيوس"... أن أدع جنودي- الذين يشتاقون للنساء منذ شهور- يفرغون فحولتهم المكبوتة، في جسدك الملكي، ثم بعدها ألقي بك عارية منتهكة أمام القصر، بعد أن أقطع رأسك... وثدييك... وأستخرج أحشائك من بين ساقيك... ثم أكتب على بطنك**

الجميل بخنجري كلمة (عاهرة) بالمصرية واليونانية والرومانية .

. وبالطبع ترَكَت الخيار لي، إما أن أقطع رأسك ثم أمثل بجثتك، أو أتركه للنهاية لأستمتع بصرخاتك الملكية، بينما أعمل في إعادة تشكيل جسدك الرائع ...

والآن يا مولاتي، هل تتفضلين بالاختيار أم تتركي الأمر لي؟

... نَظَرَت له طويلاً في احتقار، فكانت نظراتها تبصق نارًا وازدراءً على وجهه القبيح، ثم قالت في صوت هادئ صارم كأنها تلقي عليه أمرًا ملكيًا:

- أعطني القنينة.

أمر جنوده بتحريرها، وإحاطتها في تبجيل ملكي، فاغمدوا سيوفهم، وشدوا قاماتهم، بينما أيديهم مضمومة فوق قلوبهم في احترام وتبجيل ...

فاحتضنت القنينة بكلتا يديها في شجاعة تليق بملكة... صرختُ فيها وفيهم ... وحاولت القفز نحوها لأمنعها، فشعرت بعمود نارٍ وملحٍ يخترق ظهري من الخلف، لابد أنه أحد سيوفهم مزروعًا الآن بين أضلعي، فسقطت على وجهي، ليكتم الطين صرختي.

جاهدت حتى أرفع جبهتي، كما فعلت حينما رأيتها للمرة الأولى، فابتسمت حين تلاقت أعيننا نفس ابتسامتها القديمة، التي يرتفع معها حاجبها الأيمن قليلاً، لكنها كانت ابتسامة مشفقة مهدهدة، كأنها هي التي تشد من أزري في تلك اللحظة بالذات...

أومأت لي برأسها مودعة، ثم رفعَت القنينة إلى فمها في قوة وحزم. وتجرعت جرعة كبيرة كأنها تستعجل الخلاص، ثم تهاوت على أثرها تتخبط في التراب،

حاولت أن ألمس يدها أو أن أحظى منها بنظرة وداع أخيرة أو حتى شهقة استغاثة، لكن وعيي تسرب رغمًا عني وأظلمت الدنيا من حولي...

...

لم أمت بالتأكيد ... ففي الصباح أيقظني الألم الحارق في ظهري، فعلمت أنني مازلت حيًا، فتحت عيني وأنا أشهق باسمها فتناثر رذاذ الدم من فمي.

لكن المكان كان خاليًا... زحفت إلى حيث اختلطت آثار تخبطها بآثار أحذية الجند، وألقيت بنفسي أتلمس آخر آثاراها، وبكيت كما لم يبك رجل من قبل. وبينما أحثو التراب إلى وجهي وفمي لاحتضن رائحتها، اصطدمت يدي بالقنينة...!!

وجدتها ممتلئة حتى ثلثيها، فرفعتها إلى فمي في لهفة لألحق بها في أسرع وقت، علها تحتاجني في العالم الآخر ....

...لكن خطرت في بالي تلك الفكرة التي علمت أنني سأعيش عليها ما بقي لي من عمر، فكرت أنى

ما دمت سأخرج من هذا العالم بإرادتي, فهناك أشياء يجب أن أتمها أولاً قبل أن ألقى سيدتي...

حررت الفكرة روحي ودفعني الغضب والرغبة في الانتقام أن أنهض، استأذنت روحها المقدسة أن أتأخر قليلاً عن اللحاق بها، ونهضت بصعوبة، لأواصل زحفي وحبوي، حتى شاهدني مجموعة من العمال يفيقون بصعوبة من سكرهم في احتفال النصر ليلة أمس ...

فنطقت بآخر أنفاسي كلمتين (معبد أمون)...

لعدة أشهر، أُلقيَ جسدي الممزق في جوف المعبد حيث تولى تطبيبي أعظم أطباء العالم ورثة (إم حتب المعظم)...

استمعت في رقدتي إلى أنباء انتحار الملكة في مخدعها، ودخول الجيش الروماني، واستسلام آخر نقاط المقاومة، وحل وتسريح آخر الكتائب المصرية/اليونانية، ليمسك الرومان الأمر بيد من حديد...

بينما تولى(ماكسينتيوس) أمر الإسكندرية كحاكم عسكري وبجانبه (سيفروس) الخائن.

أقسمت أن يكون انتقامي مروعًا، ووضعت لذلك خطة في غاية الإحكام والبساطة، فما إن استطعت الوقوف على قدمي، حتى قمت بتجميع كتيبة مقاومة فريدة في نوعها ....

من سمع من قبل عن كتيبة تخلوا تمامًا من المقاتلين؟ فقط تحوي أطباء، ومهندسين، وكهنة وكتبة، كلهم من أهل العلم، لم يحمل أحدهم سيفًا في حياته.

وبالفعل بدأنا تنفيذ خطتنا التي ستضرب الرومان في عقر دارهم- عاصمتهم روما- سقف الكون وقمته السامقة نفسها، حفظت عن ظهر قلب تلك الخريطة التي رسمها أحد المهندسين – من جماعتنا - لشبكة توصيل المياه داخل روما، والتي أقامها يوليوس قيصر، وطالما افتخر بها، حتى قتلوه غدرًا ...

وفيما ندرسها تمكن فريق آخر من إعداد كمية كبيرة من ذلك السم المصري القديم، الذي لا يجيد صنعه إلا عدد نادر من

الكهنة، من وصفة سرية في بردية قديمة منذ عهد بناة الأهرام أنفسهم، "سم المعبد" الذي تكفي ذرة منه لقتل ثور هائج في طرفة عين.

كانت الخطة تقتضي أن أسافر مع اثنين من كتيبتي إلى روما كل بمفرده، متخفيًا في زي تاجر غلال لنتمكن من إخفاء أكياس السم داخل زكائب القمح والعطارة، ثم نتقابل هناك في مكان محدد لاستخراج الأكياس، ونثرها في المصادر الرئيسية للمياه التي تغذي القصر والمدينة.

سنة كاملة مرت حتى انتهت كل تفاصيل الخطة واستعدتُ عافيتي، ولم يبق إلا خطوة أخيرة...

فذات مساء تمكنت (أداماريس) وبعض الجواري من تخدير القائد (ماكسينتيوس) والكومندان (سيفروس) أثناء انغماسهم في سهرة ماجنة ...

وسهلن لنا الدخول من النفق السري إلى القبو، ومن ثم إلى المخادع، فحملناهما نائمين، وأصر الرفاق على حمل العديد من الوثائق والكتب الهامة، التي أحفظ أماكنها عن ظهر قلب،

لإخفائها في نقطة بعيدة تحت الأرض في عمق معبد مهجور في أقصى الصعيد...

استمتعت كثيرًا بالدهشة والذعر المرتسمين في وجه (سيفروس) الخائن عندما أفاق وعرفني، وأدرك أنني حي أرزق، فابتسمت له قائلاً:

- إنها إرادة إيزيس، أن نلتقي مرة أخرى يا عزيزي، ولا تتخيل كم أنا سعيد بهذا اللقاء!

حاول أن ينفي التهمة عن نفسه متعللاً بأنه كان مجبرًا على ذلك، فكان منظره ممتعًا وهو يستجديني أن أعفو عنه، بينما اكتفى الأخر بالنظر إليّ في صلف وعدوانية، كادت تذيب أغلاله لولا أن الرفاق أحسنوا إحكامها.

اقتربت من (سيفروس)وأنا أذيب في بطء متعمد قليلاً من السم في كوب ذهبي قائلاً:

- كنت أود أن يكون قتلك أكثر بطئًا وإيلامًا يا عزيزي، لكنني مضطر لتجربة هذا الترياق الجديد

الذي سيشفي العالم من روما وأهلها، ويمحوها من الوجود قريبًا.

ظهرت الدهشة على وجهيهما فأوضحت...

- **هل تحسبون أن ثأر الملكة كليوباترا يؤخذ من رجل أو رجلين ... لابد أن تزهق آلاف الأرواح قربانًا وفدوًا لروحها المقدسة، يا أوباش روما، وليس أقل من ذلك...**

لم ألتفت لتوسلاته المذعورة، بينما ينقض عليه الرجال ويفتحون فمه عنوه، لأصبَ فيه معظم ما في الكوب قائلاً في صوت أقرب للهمس وأنا أدنو بفمي من أذنه، بينما يدي تغلق فمه وأنفه لأجبره على الابتلاع:

- **أوصل سلامي للملكة حين تلقاها، وأخبرها أنني على العهد، ولاحق بها عن قريب، لأكون مستشارها هناك وخادمها كما كنت من قبل...**

ارتجف جسده لبرهة وهو ينظر لي في ألم... حاول أن يقول شيئًا ... لكنَّ وجهه سقط على صدره، والدماء تسيل من فمه وأنفه وعينيه ...وباقي فتحات جسده.

ابتهج الرجال لنجاح التجربة، والتفوا حوله يفحصونه في فضول علمي، بينما التفتُ للأخر الذي قال في تحدٍ بصوت حاول أن يبدو متماسكًا:

- **لو كنت تتوهم يا هذا أنك تستطيع أن تجبرني على شرب ذلك السم فأنت ساذج كباقي الفلاحين بني جلدتك ...**

ابتسمت ملء شفتي، وألقيت بباقي الكوب على أرضية المعبد قائلاً:

- **قدرك عندي أكبر من ذلك بلا شك أيها الحاكم، ومصيرك أنت حددته لنفسك سلفًا يومها ... هل تتذكر؟ فقط علَيَّ أن أختار لك. هل أفصل رأسك ثم أمثل بجسدك، أم استمتع بصرخاتك وأنا أغير من تشكيل جسدك العضلي المتناسق...**

ظهر الذعر حقيقيًا على وجهه هذه المرة بعد أن أيقن بجديتي ... حاول استعطافي إلى درجة البكاء، وسال بوله رغمًا عنه رعبًا ... بينما أخرج أدواتي لأبدأ في عملي ... وأنا أطرب لصرخاته كما لم تفعل أي موسيقى في أي قصر ملكي دخلته طوال حياتي...

بينما تقيأ بعض الرفاق وأغشي على بعضهم وهو عيب أكيد في العلماء الذين ينضمون إلى كتائب المقاومة حين رأوني أنهي لوحتي الفنية وأنا أكتب على بطنه وصدره وأفخاذه بخنجري جملة (من أجل كليوباترا) بكل اللغات التي أتقنها، وهي حقًا كثيرة.

أنهيت عملي عند الفجر، وأنا أستحم في دمائه لكن ذلك لم يشف غليلي ...

أمرتهم بإلقاء الجثث في طريق العامة، ليعرف الجميع أن مصر مازالت تقاوم ...

ذهبت لأغتسل، ثم ساعدت الرفاق في تحميل حمولتي الثمينة على عربة تنقلها للميناء ...

وهأنذا متوجه لإكمال الثأر وتقديم آخر قربان بشري لمحبوبتي جثة (**أوكتافيا**) و (**أوكتافيوس**) - الذي علمت أنه ذبح ابنها (**قيصرون**) الطفل بيده، ولم يحفظ عهده معها - ومعهما جثث ألآلاف من رجال ونساء روما...

لا أضمن هل تنجح خطتي أم تفشل؟ لكن عزائي في كل الأحوال كان قنينة زرقاء، أحتفظ بها بجوار قلبي تحمل آخر آثار شفتي مولاتي ومحبوبتي... لألحق بها كما أقسمت لروحها، فأكون عبدًا وخادمًا عند قدميها في العالم الآخر...

وكما تعهدت أن أفعل ...

أنقاض...

...طنين ذبابة مثابرة، مصرة في عزم أن تهبط بلزوجتها على وجهي، أيقظتني مرغمة, وقد اجتاحتني مشاعر القرف من كل شيء...

حاولت أن أتذكر كيف غفوت على كرسي "الصالون" بعد أن ودعت ناصر ومي إلى عمله، ومدرستها.

فقط أتذكر كيف ظللت الليلة السابقة مستيقظة أحدق في شروخ البياض بسقف غرفتنا، إذ لم أستطع النوم بعد الغزوة البربرية التي داهمت الشقة أمس بمناسبة عيد الميلاد الثامن لـ "مي".

..وقتما تكالبوا على التهام ما استغرق أعداده يومين وليلة، في عدة دقائق، كخنازير جائعة أكلوا... كخنازير صاخبة رحلوا...

وما بين الأكل والجلاء، كانت تسليتهم في افتعال المواقف التي لا تقل سخافة ولا مللاً عن فقرات مهرجي السيرك القومي في فقراتهم المكررة.

ثم انقسموا قبل رحيلهم في آخر الليلة إلى الفريقين، الذكوري والأنثوي، أو كما يحلو لـ " **سارة"** جارتي المطلقة أن تسميهم (التجمع القضيبي vs التجمع المهبلي).

حيث انهمك القضيبيون في ممارسة التدخين واستعراض نكاتهم ذات الإيحاءات القذرة، إذ يعتقدون أنها من متممات رجولتهم، التي لا تهتم إلا بكل ما هو صاخب أو عاري،

كان تفكير الذكور انتصابيًا استعراضيًا موجهًا دائمًا للخارج نحو الآخرين في مباراة لا تنتهي لإثبات ذكورتهم المشهرة.

على عكس المهبليات اللائي انهمكت بعقولهن المظلمة اللزجة، في مناقشة آخر طرق طبخ اللازانيا، كما جاء في قناة فتاتفيت، مع تلميحات مستترة لأمور نسائية أخرى، وينهين "قفشاتهن" بغمزات ضاحكة قبل أن ينهمكن في تقطيع سيرة من لم تتمكن منهن من الحضور الليلة.

ودائمًا ما يتكلمن بتوريات وكنايات داخلية مبطنة، بينما تنخفض أصواتهن في المقاطع المهمة التي تنتهي عادة بضحكة ماجنة يحاولن كتمانها بجهدهن حتى لا تصل إلى مسامع رجالهن ...

.حاولت أن أجاريهم وأجاريهن طوال الليلة مرغمة بواجب الضيافة، إلا أن شرودي كان يغلبني أحيانًا. حتى لاحظه **ناصر** ونبهني من طرف خفي.

كانت فكرة مرور عشر سنوات على زواجنا تقتلني منذ بداية اليوم، كنت أدرك يومًا بعد يوم أنني أبتعد عن عالمي الذي اصطفيته وخطته لنفسي منذ البداية، لأنزلق رويدًا رويدًا إلى ذلك العالم الذي أجبرت أن أعيشه رغم أنفي، كنت أتمزق كل ثانية وطوال الوقت بين مها التي كان ينبغي أن تكون، ومها الزوجة المحترمة والأم الرؤوم ...

واستغرقت في أفكاري طوال الحفل، حتى انصرف آخر المدعوين، تاركين بيتي أقرب إلى مقلب قمامة عمومي، أو حظيرة ثيران أصابها السعار.

. وبعد أن رحل الغزاة، واطمأننت إلى نوم "مي" ... التي أحتار دائمًا هل أحبها كابنتي التي لا تزن الدنيا قلامة ظفرها، أم أمقتها كسبب رئيسي لارتباطي الأبدي بهذه المهزلة...

..دخلت إلى غرفة نومي مع ناصر، الذي مازال منتشيًا بالجو الصاخب، فأصر أن يقوم بواجبه الزوجي الروتيني، ولم يتبادل معي كلمة سوى سؤاله:

- البنت نامت؟

فأومأت بالإيجاب ثم امتثلت محدقة في السقف، بينما صعد مباشرة إلى معركته التي انتهت في دقيقتين، كافحت خلالهما في استماته أن أتجنب أنفاسه الغارقة في رائحة سجائره والتي تتسلل من مسامه لتكتم أنفاسي، كدخان جيفة متعفنة تحترق ...

حتى انتهى... فأعطاني ظهرة - كالعادة - وسرعان ما سمعت شخيره كمحرك صدئ، وظللت على وضعي الذي تركني عليه محدقة بسقف الغرفة... كنت أسترجع كيف تحولت

من مها الإنسانة، إلى روبوت مبرمج، مخصص للأعمال المنزلية، وإمتاع هذا الفحل المشخر، المرتخي بجواري...

أين ذهبت (**مها عز الدين**) مهندسه الكمبيوتر العبقرية الشابة المفعمة بالطموح؟ أين ذهبت مشاريع التخرج، ومشاريع ما بعد التخرج؟

أين الدكتوراه؟ والحلم بأكبر شركة برمجيات في العالم؟ أين حازم ؟؟... الذي شاركني صنع تلك الأحلام من الأساس إلى أن ناطحنا السحاب معًا، والذي كافحت أمام أبي باستماتة ليقبل خطوبته، فقوبلت بالرفض والإذلال من الجميع، حتى استسلمت، لأتزوج في أقل من شهرين **بناصر شومان** وسيارته الكورولا موديل السنة، وشقته في الشيخ زايد، ووظيفته البنكية المضمونة...

كيف سرقوا مني روحي ومنحوني تلك السيدة الروبوت التي تحولت إليها.

...في البداية كانت مها الأصلية غاضبة ثائرة، ومع الوقت ازداد ضعفها وصمتها حتى تخيلت أنها قد ماتت ودفنتها

بإصرار، تحت ركام العشر سنوات حتى انسحقت جثتها وتحللت.

وما يراودني الآن من انكسار وحزن نتيجة لانبعاث غازات تعفنها، بروائحها الكريهة من داخل أعمق كهوف روحي،

أدت تلك الفكرة الأخيرة إلى بث بعض الهدوء المستسلم للأمر الواقع، الناتج عن اليأس الراضي بما صرت علية،

ذلك الهدوء الذي لم يقطعه سوى صوت المنبه، المؤذن لميعاد ذهاب ناصر إلى العمل ومي إلى المدرسة، ثم غفوتي جالسة على الكرسي بعد ذهابهم، لتبدأ - مرة أخرى - تلك الدورة اليومية البغيضة من إزالة آثار معركة الأمس، ثم إعداد الغداء، ثم المعاشرة المبتورة الكريهة، وأنفاس السجائر، والقيء سرًا، ومواعين المطبخ!!

قمت ملسوعة عندما تذكرت المطبخ ومواعينه التي لا تفنى أبدًا، حاولت أن أحرك جسدي الذي شعرت به مكبلاً بأطنان من السلاسل الحديدية، كافحت حتى وقفت على باب المطبخ متأملة الفوضى الضاربة في

أرجائه، زاد من شعور الإحباط ذلك العرق اللزج الذي سال بطيئًا على ثنايا جسدي، من جراء تعطل المكيف للمرة العاشرة، قررت إرجاء الاغتسال حتى أنتهي من المطبخ، لكنني خلعت ملابسي بكاملها، ووقفت عارية تماما أمام الحوض ... منحني شعور العري بعض الهدوء المتمرد رغم كوني وحيدة تمامًا، بدأت في رص وتصنيف الأواني حسب حجمها، الأطباق الصغيرة التي كانت مملوءة بالحلوى ثم الأطباق الأكبر، التي تحملت في بطولة معركة افتراس أطنان الأرز والمكرونة واللحم والخضر، ثم أبعدت أواني الطبخ الكبيرة حتى النهاية.

كنت أتصرف بآلية تامة، فبدوت بالفعل كروبوت منزلي عاري، حاولت صنع حاجز داخل عقلي، ليقف سدًا أمام أفكاري التي تتصاعد كبالون سرطاني يوشك أن ينفجر...

وانهمكت فيما أفعل ... وخفف الماء الدافئ المنساب على يدي قليلا من اضطرابي، قمت بصب قليل من سائل التنظيف

الذي يجب أن "**تقضي نقطة واحدة منه على أصعب الدهون بلمعان مضمون...**" والذي لابد أن أشتريه كل مرة أزور (السوبر ماركت) القريب، مع مسحوق الغسيل الذي" **يغسل أكثر بياضًا بحبيباته الزرقاء الخارقة** "

، ضغطت بظفري بعض الأوساخ العالقة لتلين أمام الماء الساخن ورغوة التنظيف، حتى أوشكت أن أنتهي من الأطباق الصغيرة لانتقل إلى الأكبر...

ولكن رائحة جثة روحي المدفونة تحت الركام كانت تتصاعد بإصرار نحو أنفي - ورغم أنفي- حاولت بجهدي أن أسد منافذ روحي وأنهمك مع (مواعيني)، لكن الرائحة طاردتني بعنف مُصِرّ، حتى تحولت إلى صراخ من تحت أعمق أنقاضي، يعلن أن ذاتي القديمة مازالت حية تقاوم وتجاهد صاعدة إلى السطح.

قاومت الصرخة بداخلي والأفكار كانت تنمو بداخلها كأشجار من (ماذا لو) ... أحسست باختناق أنفاسي تحت

وطأة الأشجار والتساؤلات المتصاعدة في سرعة كسرعة القيء الصاعد من جوفي ...

وضعت تركيزي في الطبق الذي أمسكه بقوة ... ضغطت أكثر محاولةً السيطرة على الحريق داخلي، ومع تزايد ضغطتي وحِدّتي، ما لبث أن انهار هو الآخر وانشطر في يدي ...

فكان انكساره بمثابة صدى صوت لانكساراتي المتتالية، والتي شوهت روحي إلى الأبد ...

تركت الطبق يسقط ليكمل تشظيه على أرضية المطبخ كما اكتمل تحطمي إلى ملايين الشظايا.

لثوان أمسكت بحوض الغسيل متشبثة به، وقد انحبست أنفاسي لكتم النشيج المتصاعد، ولكنني لم أستطع كتم الدموع التي انهمرت ساخنة بتأثير احتراق جوفي حتى انهار السد...

تصاعد النشيج من حلقي المتشنج، فخرج فيما يشبه صرخات مبحوحة بلا صوت، وأنا متكورة كجنين عارٍ أعلى

أرضية المطبخ المبتلة، بين فتات الطبق المكسور التي حزت جانبي حتى نزف، فاختلط دمي بقاذورات التنظيف...

كنت أبكي على روحي الميتة بصوت أقرب إلى العويل المحترق، وكانت أعصابي ودموعي خارج السيطرة، أردد بلا وعي أسماء حازم وناصر ومي وأمي، كنت أصرخ في أشخاص غير موجودين حتى انهارت قواي تمامًا ... وانهار فوقي ركام عشر سنوات من العزلة، ومحاولات الظهور بمظهر الزوجة المخلصة والأم السعيدة في حياة مكتملة ...

كنت أنسحق وأئن، ويزيد أنيني من انسحاقي، فانسحق وأئن تارة أخرى، في دائرة مغلقة، متكومة تحت أطنان من حطام نفسي، والأطباق المكسورة والفضلات القذرة، التي تتصارع فوقها الخنازير البشرية، وتتصاعد منها أنفاس عفنة برائحة السجائر، رائحة لها خوار يشبه شخير محرك صدئ، وكنت ألعن نفسي آلاف المرات في ندم حارق على استسلامي لهم حينما قرروا ذبحي يومئذٍ...

***

لا أعلم، هل غفوت على حالتي تلك؟ أم فقدت الوعي؟ لكنني عندما أفقت، تحركت في منتهى الهدوء والثقة رغم الثقوب الصغيرة التي تنز دمًا مختلطًا بالقذارة حول جسدي العاري ...

ألقيت نظرة طويلة لا مبالية على حوض المطبخ بـ(مواعينه) التي كانت تتوق للغسل وفقدت أملها فيه مع سقوطي...

ثم توجهت إلى الحمام فأثار الماء الساخن - جدًا- آلام جروحي الدقيقة، لكن الألم ساعدني على التركيز على الخارج وليس داخلي الملتهب ...

بهدوء استخدمت "الشامبو" المكتوب على عبوته أنه "**يجعل شعرك أقوى كل يوم**" وسائل الاستحمام الذي "**ينقلك إلى عالم رائع من عبير الزهور**" ...

ثم توجهت إلى غرفتي فارتديت ملابس الخروج، لم أجرؤ على النظر إلى سرير الزوجية، الذي يحمل كل مليمتر منه بصمات مذبحي ومسلخي ... وخضوعي.

أنهيت ارتداء ملابسي وتأنقت في كامل زينتي، ثم تعطرت متوجهة إلى باب الشقة حاملة حقيبة يدي الجلدية، وحقيبة سفر صغيرة تحوي القليل من ملابسي الضرورية، وبعد أن فتحته تراجعت...

...أخرجت وريقة وقلمًا، لأكتب بضع كلمات، وأضعها في مكان ظاهر ... **تلك الحركة التي طالما استمتعت وأنا أشاهدهم يقومون بها في المسلسلات العربية**، ثم استمتعت أكثر بصوت الباب وهو ينغلق خلفي، معلنًا تحرري أخيرًا من سجني المؤبد....

***

في الثالثة انفتح باب الشقة عن ضجيج الصغيرة، التي أدخلت أبيها في دوامة أسئلة لا تنتهي، وهو يجيبها في ضجر ضاحك، مناديًا على " مها " لتلحقه قبل أن تقتله ابنتهما بتساؤلاتها اللانهائية...

خرجت "مها" من مطبخها باسمة في استقبال الصغيرة، التي جرت متقافزة حتى تعلقت بعنقها،

فاحتضنتها في حنو حقيقي لتتحول تساؤلاتها من أبيها إلى البحث عن كنه الروائح الرائعة، التي تتسلل خارجة من فرن الطهي في وشاية بوليمة غداء معتبرة ....

كانتا تتضاحكان حينما لاحظ ناصر تلك الوريقة على الطاولة، بخطها المتعجل والكلمات الثلاثة النائمة على متنها (لا تبحثوا عني)....

كرر في صوت خافت من بين أسنانه المطبقة غيظًا:

- ليس مرة أخرى يا مها ...

ولم ينس أن يلحظ الحذاء وحقيبة السفر الراقدين بإهمال خلف الباب.

حدق في عينيها في غضب وعيناه تنفجران بكلمة واحدة:

- لماذا؟

بانت ابتسامتها منكسرة وهي ترنو إلى نقوش السيراميك في خجل - كعادتها تلك المواقف - مما جعل غضبه يتراجع إلى شفقة حقيقية....

ثم حركت كتفيها في لامبالاة كطفلة يائسة، واستدارت إلى المطبخ لتكمل تنظيف الآنية التي تخلفت عن إعدادها لطعام الغداء. استعدادًا لشوط آخر من الانهماك الروبوتي، ... **بعد أن ينتهي كل شيء....**

الجانب الآخر....

...بلا منازع، كان السكون سيد الموقف... إذ فرض سطوته مهيبًا لزجًا، ثقيلاً، مترقبًا ... كأنما أذعن له الكون بأكمله في مؤامرة خضوع صامت...

انحبست الرياح في سريانها وسكنت ممتثلة، حتى أن سحب الدخان الأبيض الرقيق الباقية من القصف الأخير لم تتبدد، وظلت معلقة فوق المباني المتهدمة، كتذكار بغيض،

... الكلاب الشرسة المدربة على القتال كفت تمامًا عن العواء وانزوت بين أقدام مدربيها بعد أن استشعرت توترهم.

حتى الطيور كفت عن صياحها المنغم، وانكمشت بين الأغصان، وكأنها فهمت فحوى الإنذار الأخير ...فاستجابت في ذعر مترقب.

بينما اختفى بكاء الأطفال في حجور أمهاتها المختبئات هلعًا، وكف وأنين الجرحى في الملاجئ بعد أن صرفهم عن آلامهم

ذلك اليقين بأنهم مغادرون إلى الجانب الآخر في هجرة جماعية...

حيث سيكتظ البرزخ بملايين الأرواح المبتورة، دفعة واحدة يتزاحمون على عبور حافته الضيقة بعد دقائق...

...كأنما تضامن الوجود صمتًا وتوترًا وانتظارًا للقادم، واحترامًا لمن يراقبون العد التنازلي بالثانية قبل أن يسدل الستار للمرة الأخيرة على حضارة كاملة توشك أن تختفي من الوجود بعد عدة دقائق، لتحتل مكانة لا تستدعي غير الحسرة داخل كتب التاريخ، إذ مضت ساعة كاملة على المهلة، التي أعلنها قائد الفيالق الثلاث المهاجمة، في إنذاره الأخير، قبل استئناف هجومه الساحق والأخير

ارتجفت يد الجنرال وهو يشعل السيجار ذا الرائحة الخانقة، -هدية الزعيم القائد في ذلك الصباح- وهو يتابع من فوق التل جحافل القوات الغازية وقد توقفت بالكامل، بينما محركات مركباتها دائرة تزأر في انتظار أوامر التحرك.

ها هو ذلك الثور الناري الواثق، يتوقف حافرًا الأرض بقدمية استعدادًا لانقضاضته النهائية, كانت النهاية واضحة لأي طفل, فما أن تنتهي المهلة حتى تنسحق كامل قوات المواجهة مع الموجة الأولى للهجوم، ولن يستغرق ذلك سوي عدة دقائق، ثم يتبعهم قائد الغزو المتمرس بسحق عشرة ملايين بشري، يمثلون إجمالي تعداد المدينة، قبل أن يتركها محترقة خلفه، متجاوزًا التل، ليحاصر الحصن الذي قد تصمد فيه قوات الصفوة لفترة قد تصل لساعتين على الأقصى، قبل أن يتدفق جنود العدو كسائل يغلي ليفور صديدهم في السراديب السفلية وصولاً إلى ملجأ الزعيم نفسه، وقتها فقط سيتوقف ليعلن انتصاره النهائي.

...بينما كان التل الذي يحتوي - تحت سيطرته - على آخر قوة ضاربة في المدينة, مائة وعشرون وحدة من راجمات الصواريخ ... مخفية بعناية في عمق أعماق صخوره الجرانيتية كمارد ينتظر الوثوب...

كانت تمثل القوة الحامية للمدينة، في مواجهة الفيالق الثلاثة المهاجمة، التي تستعد لدهمها من الشمال والشرق والشمال الغربي، بينما يشرف التل على المدينة من الجنوب وخلفه، وفي حمايته يقبع الحصن الذي يحتمي تحت أعماقه الزعيم ومجلس الحكم.

كان الجنرال يدرك جيدًا أنه لو استخدم آخر ما عنده من صواريخ شديدة الفتك، بأبرع تكنيك يتقنه، فربما نجح أن يدمر ربع قوة الغزاة، ولن يحدث ذلك فرقًا في مصير المدينة، إلا تأخيرهم عدة دقائق... هذا إن لم ترصده الطائرات المحومة على ارتفاع منخفض ما أن تنشق قمته، أو مع أول زخة صاروخية، فيحيلون التل بما فيه ومن فيه إلى رماد أدق من رماد سيجار الذي استحال طعم دخانه في فمه إلى ما يشبه البراز المحترق.

بخبرته العسكرية كان يدرك أن الأمل معدوم، وينبغي الاستسلام فورًا إذا أردنا الحفاظ على العاصمة وسكانها

وأسلوب عمارتها وتاريخها، بعد أن سقطت باقي مدن المملكة وتمزقت للأبد .

فقائد الغزو كما هو معروف عنه لا يرحم إلا الذين استسلموا في وقت مناسب، فاذا انتهت مهلته المعتادة تكون إبادة جماعية لا يتطرق إليها أي معاني الرحمة، فلا حق عنده للمهزومين إلا أن يسمح لجثثهم المحترقة بالرقاد في هدوء إلى الأبد.

"... يجب أن تبقى المدينة الكبيرة العتيقة ربما استطاعت الأجيال القادمة تعويض ما خسرناه. لكن كيف؟"

فالاستسلام لم يكن يومًا في حسابات الزعيم، الذي بدا مصرًا على القتال للنهاية، مضحيًا برماد كل عسكري أو مدني يستطيع أن يحول بينه وبين ساعته المحتومة ولو لثانية واحدة.

.كثيرًا ما ترددت الأقاويل والحكايات عن جنون الزعيم، لكنه ولأول مره يرى ذلك الجنون ويلمسه عمليًا في ذلك الصباح، حيث صدرت الأوامر باجتماع قادة الأفرع الباقين

في جيشه داخل الحصن، بدأ الاجتماع بمزاج متذمر ومطلب واحد أصر عليه الجميع في استماتة: "أن نسلم المدينة بشروط عادلة قبل أن تفنى ويفنى معها العسكريون والمدنيون على حد سواء. فلا معنى للصمود ونحن نعرف النتائج ولا لنا جميعًا أن نحترق في سبيل الزعيم...

كان وزير الحرب أكثرهم حده وقوة بحكم مركزه، وكان يبدو ماردًا، صلبًا، وأسطوريًا، وقت أن وقف بقامته الضخمة، ووجه إصبعه في صدر الزعيم مباشرة، مهددًا بتنحيته فورًا وأخذ زمام المبادرة، قبل أن يردينا جنونه إلى هاويه تطيح بتاريخ الوطن ومستقبله في ضربة واحدة...

لكن التذمر توقف على الفور، مع ذلك الثقب الذي ينز بدماء طازجة حارة، لم تصدق أنها تخرج من مجراها في جمجمة الوزير الفخمة هكذا فجأة، وبلا مقدمات، ذلك الثقب زين جبين الوزير كرد منطقي من سلاح الزعيم الشخصي، أخرس الجميع...

بعدها انفجر الزعيم في ثورة عارمة، ليتناثر لعابه على الطاولة مختلطًا بدماء وزيره الأول وصديق عمره وشريكه في الثورة المباركة!!! اتهمهم بأحط صفات الخزلان وخيانة الوطن، في تقاعسهم عن حماية زعيمهم. واحمر وجهه وهو يصرخ في وجوههم:

- **ألا تقسمون يوميًا ملء حناجركم، على فداء الوطن وفدائي بأرواحكم ودمائكم؟**

وهدأ صوته شاردًا، كأنما نسي وجودهم وهو يقول في مرارة حقيقة:

- **لولا غباء حفنة الجنرالات الذين أسمنهم كما أسمن قطيع أبقاري البيضاء، ما انقلب نصري الباهر إلى هزيمة، ولا تلاشت الأحلام التي بدأت من أجلها الحرب لتأسيس إمبراطورية عظيمة تعيد لدولتنا أمجاد الأجداد الذين حكموا العالم لقرون طويلة...**

ثم استعاد ثورته الصاخبة، ليتهمهم أنهم شعبًا وجيشًا وحكومة في هذا الجيل لم يكونوا على قدر المسؤولية، ولا قدر الحلم، ولكأن جينات الأجداد، وعزيمتهم الصلبة، قد استحالت في عروقهم إلى مياه باردة عطنة.

ظهر بوضوح أن الزعيم لا يدرك أن قراراته المتهورة التي اتخذها في الأشهر الأخيرة - بعدما أسكرته نشوة الانتصارات الأولى- قد هوت بهم إلى الحضيض"

..ويبدو أنه قد نسي أيضًا أن كل من عارضوا تلك القرارات، لم يختلف مصيرهم كثيرًا عن وزير الحرب، الذي سحب الحرس جثته خارج القاعة للتو وخلفهم فرقه نظافة تمسح خط الدماء من خلفه، في نفس الوقت الذي سطرت فيه فرقة الدعاية والتوجيه بيانًا ينعيه شهيدًا صمم على التصدي للعدو في الصفوف الأمامية حتى النهاية.

تمتم أحدهم في خفوت مرتعب بشيء ما عن المدنيين العزل، والأطفال في الملاجئ، ووجوب حمايتهم من أجل مستقبل

الوطن، فسكت الزعيم دفعة واحدة وهو يحدق في وجه المتحدث. وأجاب وهو يضغط على كلماته وبريق عينيه المجنونتين يكاد يضئ القاعة التي يلمع كل ما فيها بلون القطع الذهبية المدمجة مع خشب الأبنوس الأسود اللامع في فخامة تقطع الأنفاس:

- إنها معركة الوطن، دخلناها معًا وسننهيها معًا، وكلنا على قلب رجل واحد في سبيله، ليست معركتي وحدي، والشعب الذي تتكلم باسمه، أقسم أن يسير ورائي حتى النهاية نصرًا أو هزيمة، ألا تذكرون تلك المظاهرات المليونية الحاشدة التي أحاطت بالحصن والقصر وهم يهتفون مثلكم فداء الوطن وزعيمه بالروح والدم حينما اتخذت قرار الحرب؟

وحين أطحنا بالخونة المعارضون لقرار الحرب، وقتها ارتجت المدينة بهتافاتهم التي ترجوني إعدامهم علنًا أمام العامة.

إنهم شعبي ورجالي ولا وقت للشفقة أو التخاذل، فإذا كان قضاء الله أن نحترق جميعًا في سبيل الوطن: فنحن شهداء في الجنة وننتقل معًا للجانب الآخر، رجالاً مرفوعي الرأس للنهاية....

أم تحسبون أن كل ذلك كان مزيفًا (قالها وعيناه العسليتان الحادتان تخترقان صدر وزير الإعلام والدعاية، حين وجه كلماته الأخيرة إليه فتضاءل في مقعده كطفل ضبط للتو متلبسًا بفعل مشين...

ويبدو أيضًا أن الزعيم كان يصدق تلك المظاهرات الشعبية الحاشدة، التي مرارًا ما نظمها وزير الإعلام مع وزير الحرب المقتول، لإضفاء شعبية زائفة على قرارات الزعيم الحمقاء، والغريب أنه يصدقها رغم أنه كان يقوم بتنفيذها بنفسه عندما كان نائبًا للزعيم الراحل ووزيرًا لحربه، لكن كل الشواهد تؤكد أن القائد على حافة الجنون إن لم يكن تخطاها بالفعل...

أنهي الزعيم الجلسة بعد أن أعاد جميع القادة قسم الولاء مجبرين، وأضافوا للقسم أنهم سوف يموتون في سبيل الوطن وزعيمه، فلا سبيل لهم إلا النصر أو الشهادة، وقبل أن ينصرفوا انتحى الزعيم بالجنرال بصفته قائدًا لكتيبة الراجمات واضعًا يده على كتفه قائلاً في صدق:

- لأعلم أنك أهلٌ للثقة التي وضعتها فيك حين أمرت بتنصيبك في ذلك المركز الحساس، أنت أملى الأخير ومصير الأمة بين يديك، اطمرهم بصواريخك، لقد وضعتها بين يديك، إنها آخر ما لدينا من قوة، اعمل على إبادتهم عن آخرهم، وإن لم تستطع إبادتهم فعطلهم قدر الإمكان حتى تلحق بنا جيوشنا من مدن الجنوب...

أنهي توجيهه الأخير بابتسامة لزجة مفتعلة يداري بها توتره، وناوله ذلك السيجار الفاخر الذي يتميز به الزعيم على مستوى الإعلام العالمي.

وشد على يده في لمحة صداقة لم يتوقعها، لمحة إنسانية نادرًا ما تخرج من الزعيم، لكنها وللأسف أتت مفعولاً عكسيًا، فرسخت عند الجنرال إحساسه بعجز واضطراب زعيمه، ومع ذلك أقسم مرة أخرى على الولاء والموت فداء الزعيم والوطن .... وفي ذهنه صورة واحدة لثقب ينز بالدماء ويتسع حتى يبتلعه، ويبتلع المدينة والجيوش المهاجمة، والكون كله.

ردد القسم وهو يعلم تمامًا أن القوة التي يسيطر عليها، لن تجدي نفعًا مهما كانت دقة تصويبها، فالفيالق المهاجمة باتت من القوة والاتساع بحيث لن تؤثر صواريخه إلا في القليل من معداتهم .

بالإضافة إلى أنه بمجرد انفراج القمة لانطلاق الدفعة الأولى من الصواريخ فسوف يتم رصدها وتدمير التل على الفور، فكل ما يملكه إذًا، هو دفعة واحدة من عدة صواريخ بلا تأثير حقيقي.

...أما جيوش مدن الجنوب، فالجميع يعلم أنه لم يعد في الجنوب لا مدنا ولا جيوش ولا أي نوع من أنواع الحضارة، فالمدينة الكبرى هي آخر ما تبقى من المملكة التي كانت يومًا عظيمة وأهلكها غباؤه وتخاذلهم...

.....

ومن موقعة فوق التل المشرف على المدينة، التي تكاد أن تلفظ أخر أنفاسها، تابع الجنرال العد التنازلي للهدنة التي لم يبق عليها سوى عشر دقائق، بعين دامعة من أثر السيجار الذي لا يجرؤ على إلقائه بينما في داخله تشتعل أمواج عارمة من التساؤلات...

كان قلبه يحترق على مصير زوجته التي لابد أنها الآن تحتضن طفلهما الوحيد في أحد الملاجئ، منشغلة مثله ومثل الجميع، بإحصاء ثواني الهدنة المتسربة في صمت، وسط باقي النساء، كان يعلم جيدا أنها تتساءل مثله عن مصيرها هل يبدئون بقتلها مباشرة أم يعبثون بجسدها أولا، وهل سيتم ذلك أمام الطفل ليعذبوه بهتك امه، ثم قتلها أمام عينيه، أم

سيعذبونها هي بقتله أولاً، ثم بعدها يبدأ مرح الجنود المعتاد واحتفالهم بالنصر بالعبث بآلاف الجميلات، اللواتي ضيعهن عجز رجالهن، وجنون قادتهن.

، لقد أوشكت المهلة على الانتهاء والزعيم يرفض الاستسلام، لم يبق ما يستطيع فعله، عشر دقائق لن يودع بعدها الدنيا وحده، ولن يرحل مع عائلته بل سيودعها وطن بأكمله، لن يتبقى منه شيء تتذكره الأجيال القادمة، بل لن تبقى أجيال لتذكر تاريخهم.

فقط عدة أسطر في كتب التاريخ أنه كان هنا وطن في يوم ما، هذا إذا لم يتدخل المنتصرون، فيعيدون كتابة التاريخ من جديد كالمعتاد، لمحو أمتهم حتى من ذاكرة صفحاته ...

لن يتبقى من يجمع الأطفال ليحكي لهم عن انتصارات الأجداد ورموز الأحجار القديمة، لن يتبقى من تدمع عينيه حين تعزف موسيقى سلامهم الوطني، أو أغنيات الحب والحصاد، سوف تندثر ألوان رايتهم وطريقتهم المميزة في

العراك والغزل والشعر، سوف يتغير اسم الأرض على يد ساكنيها الجدد بعد فنائهم جميعًا.

كان لابد أن يفعل شيئًا، لكنه العجز، فليس بيده شيء يفعله سوي أن يضرب ضربته الأخيرة ثم يموت قبل الجميع عندما يتم رصده، ربما كان في موته قبل الجميع عزاؤه الوحيد ...

وهنا لمعت عينا الجنرال قائلاً لنفسه في شرود :

- **بالفعل يجب أن يموت قبلهم ... يبدو أنه الحل الوحيد في ظل الإمكانيات المتاحة...**

اتصل في عجل متحمس، بمساعده ونائبه قائلاً في لهفة:

- **هل تذكر مخزون الرؤوس المضادة للملاجئ الخرسانية؟**
- **نعم يا سيدي، فقد تم تخزينها في انتظار أن نصل إلى مدنهم ونحاصرها، ولم يتسن لنا استخدامها مطلقًا.**
- **كم تحتاج من الوقت لإعدادها للإطلاق؟**

أجاب المساعد مستغربًا

- **سيدي إن العمل يتم آليًا بالكامل، لكن لماذا؟**
- **إن الوضعية الدفاعية تحتم أن نستخدم الـ .....**

قاطعه قائلاً في حدة رسمية:

- **كم من الوقت تحديدًا؟**

أجابه بسرعة:

- **ثلاث دقائق على الأكثر يا سيدي.**
- **ابدأ في عمليات التلقيم الفوري وانتظر الإشارة والإحداثيات بمجرد الانتهاء.**

دهس السيجار الفاخر بِغِل، فأخرس دخانه - ذو الرائحة الوقحة - للأبد، وهو يشاهد الاستعدادات الأخيرة للفيالق، قبل التحرك للهجوم الشامل عندما أتاه صوت مساعده عبر قناة الاتصال الداخلية يخبره بتمام الاستعداد ... وصعق حين أملى عليه الإحداثيات، فارتفع صوته صارخًا بشراسة

- **افعل ما آمرك، وأنا المسؤول عن كل شيء**

أدخل المساعد الإحداثيات بيد ترتجف في نفس الوقت مع قائده .... وضغط كلاهما زر الإطلاق كل من موقعه، فانطلقت الزخة الصاروخية محملة برؤوس قادرة على اختراق أعماق الأرض إلى ثلاثين مترًا أسفلها مهما كانت نوعية تربتها أو صخورها....

ومهما كانت نوعية التحصين وحجمه محيلة الملاجئ تحته وفي أعماق الأرض، إلى دركة من دركات الجحيم تكفي نيرانها لتبخير عظام البشر الذين يشعرون بالأمان لوجودهم داخلها، حتى قيل إن مخترعها ومطورها هو الشيطان نفسه، فكان بديهيًا منعها وتجريمها دوليًا، إلا أن الزعيم أمر بتخزينها سرًا وهو ينوي استخدامها حين يكون وقتها.

تابع بعينيه انطلاقها في عكس اتجاه العدو، نحو الجنوب لتسقط في شوق مستعر إلى الأرض واحد تلو الآخر في بقعة محددة بدقة يعلمها فقط قلة من القادة هو منهم...

...لتسقط تمامًا فوق ملجأ الزعيم أسفل الحصن...

كان يعلم جيدًا، أن جميع القوات ستستسلم بمجرد انفجار الحصن واختفاء الزعيم، وانقطاع اتصالاته بباقي القادة، سوف يضعون أسلحتهم آليًا قبل انقضاء المهلة.

"متسائلاً في أعماقه، هل صار للتو خائنًا للوطن، أم صار بطله ومنقذه الأخير ؟؟"

، لم يستطع عقله التحديد ... فإجابة سؤاله كانت في سؤال آخر:

"هل أقسم بالولاء للزعيم أم للوطن؟

وهل الوطن هو الزعيم؟

أم هو الأرض والأحجار والآثار ورائحة الهواء؟

أم هو تاريخ الأجداد وحكاياتهم وأناشيد الأطفال؟

وحتى لو أقسم على فداء الوطن. فهل ينبغي أن نموت جميعًا في سبيله؟ فأين هو الوطن بعد فنائنا؟

أم أننا نحن الوطن؟ ونحن من نحمله في صدورنا أينما حللنا؟ ويجب أن نحارب من أجل البقاء؟ حتى

ولو فني الوطن وزعيمه وسائر قادته، ليبقى بعض الوطن بداخلنا" .

كان يعلم في أعماق روحه أنه فعل ما ينبغي فعله، بغض النظر عن فلسفة تبريره.

حتى بعد أن تهاوت قذائف الطائرات والمدفعية لتهيل حجارة الجبل فوق رأسه ساحقة عظامة، لكنه للغرابة لم يشعر بألم؛ ربما هي المخدرات الطبيعية التي أخبروه أنها تنطلق في أمخاخ المحتضرين، أو ربما كان الألم أكبر من أن تدركه أعصابه فأطفأت نفسها بنفسها، وتلاشت ... ظهرت ابتسامته شاحبة من وراء ستار الدماء الذي غطى وجهه وعينيه، وهو يسمع أبواق الاستسلام من بعيد،

وقتها خيل إليه أنه يسمع تنهيدة راحة وخلاص تنبع من أعماق الأرض التي التصق بها منسحقًا نازفًا ما بقي من روحه، مترقبًا اعتراف تراب وطنه بجميله.

بينما يتصارع في ذاته مع وصمة الخيانة التي ستضفر مع تاريخ اسمه للأبد، لم يميز وهو يغلق عينيه لأخر مرة، هل هي

تنهيد الأمهات اللواتي نجا أطفالهن من الموت بأعجوبة، أم هي تنهيدة أرض الوطن نفسه فرحًا بالخلاص، بعد أن صار هناك أملاً في المستقبل حتى تحت رماد الهزيمة والاحتلال. لكن السؤال المعلق في آخر خلية من وعيه قبل أن ينطفئ نهائيًا...

(هل سينتقل إلى الجانب الآخر شهيدًا مرفوع الرأس كما كان يحلم الزعيم. أم .....؟)

ساديزم ...

... هل عَمِيَتْ عيناكِ حقًا عن ذلك الفخ الساذج رغم حساسيتك المرهفة؟

كيف إذًا سقطتِ...؟

أنتِ لا تتذكرين بالطبع كيف ...

فقط كنتِ تستمتعين بالطيران بلا هدف لأول مرة في حياتك القصيرة، وبعد ثانية التقمت الخيوط اللزجة أجنحتك في حنو صامت .... في البداية تخبطتِ حتى أدركت أن ارتعاشاتك لا تزيدك إلا تورطًا ... فهدأتِ.

اختلطت أفكارك.... هل سقطتِ حقًا؟ أم أنك احتضنتِ الخيوط بمحض إرادتك الحرة؟

هل تذكرين كيف بدت تلك الخيوط التي تتألق تحت الشمس؟ هي غاية الغايات، وإنها لم تخلق إلا لتحتضنك في شغف، عاد اختلاطك؟، هل كانت تلك أفكارك أنت؟ أم إيحاؤه هو؟ كان الأمر مربكًا، فلابد أنك قد سمعت بقدرته على دخول عقولهن وتحريك إراداتهن كما يشاء، إلى أن يسقطهن في حرير شبكته.

لكنك في ذات الوقت لا تصدقين أن تخدعك إرادتك إلى ذلك الحد .... فلو صدقت ذلك فما يدريك إذا أنك كنت تمتلكين إرادة من قبل؟

هل كنت مخيرة حقًا؟ أم أن طيرانك ولهوك وحياتك كانت مسيرة وفق خطة مسبقة لا يعلمها إلا هو ...؟

هل يجوز أن تكون تلك القصة الطويلة منذ أن خرجت من شرنقتك الدافئة، موجهة ومرسومة بإرادة العنكبوت ومن أجله؟

نعم ... وربما حياتك الأولى منذ كنت يرقة مزدراة تزحفين على بطنك في الطين؟ إلى أن تشرنقت وخرجت كائنًا أجمل وأسمى ...

ألا يجوز أنه قد اصطفاك من أجل هذه اللحظة؟ ألا يجوز أنه ينسج الآن حولك – من كرمه – شرنقة حريرية جديدة، تخرجين منها كائنًا أرقي وأسمى؟

ها أنت – وعند هذه النقطة – داهمتك السكينة أخيرًا .... شعرت أنك في مستقرك الذي خلقت من أجله.... ومن أجله كانت نقوش أجنحتك المزخرفة ... وطيرانك الأنيق العابث المتألق في نور الشمس ....

، وأخيرًا آن أن تستكيني بين يدي سيدك، وهو ينسج من حولك شرنقتك الجديدة في انتظار أن تبعثي كما يشاء هو .....ويرضى.

ميجالومينيا...

ثم ماذا بعد. ... يبدو أخيرًا أنها نهاية المطاردة ...

أخيرًا أحكموا الحصار في مؤامرة اشترك فيها الجميع، حتى أكثرهم تظاهرًا لي بالمودة...

...أخيرًا بات الأمر محسومًا لصالحهم، ولا بد من الاستسلام طواعية للذبح ...

. ...أخر قضمه من شطيرة الفول التي حمض طعمها منذ الأمس، لكني لم أجد في نفسي تذمرًا أو اشمئزازًا منذ أن بت أعرف أنها آخر وجبة...

الغريب في الأمر أن القلق تلاشى تمامًا، عندما علمت أنها النهاية، صار كل شيء تافهًا وممتعًا في آن واحد، بمجرد أن قررت الاستسلام، أنني أعب من الثمالة الباقية في كأس الدنيا.

ذرات الأكسجين الأخيرة التي تداعب رئتي لآخر مرة، قطرات الضوء التي أصرت في جدية أن تنحفر في قزحيتي بألوان أزهى من كل مرة، آخر قضمات الفول الحامض التي تتراقص دائرة في أمعائي رقصتها الأخيرة، قبل أن أهديها كهدية وداع إلى منظومة الصرف الصحي في المدينة التي طالما أرهقني، واكتشفت الأن كم كانت حلوه متسعة وساذجة...

حتى ضوضاء الطريق ومشاجرات الباعة التي طالما أفسدت يومي، باتت كسيمفونية تعزف من أجلي خصيصًا، حتى قررت أن أسميها سيمفونية التشبث الأخير،

اختفى التوتر والصداع والاشمئزاز والغضب حين اختفت المقاومة ليحل محلها سكينة ممتعة، لو كنت أعلم أن الاستسلام لهم سوف يحمل تلك الراحة وهذا الهدوء لتوقفت عن الفرار منذ البداية.

فلو كانت مقدمات النهاية بهذا النقاء فلابد أن الأمور هناك على الجانب الآخر أكثر روعة.

بالطبع أعلم أني قد اقترفت ما لا يجب أن أقربه، وتقاعست كثيرًا عن واجبات مفروضة في الدنيا، لكنني أعلم يقينًا أن الله لن يلتفت لتلك التفاهات الصبيانية الدنيوية التي أصبحت أنا نفسي أوقن بهرائها لمجرد اقترابي من الحافة، فلابد أنه في عليائه والملائكة يرونها أمورًا طفولية تافهة لعقل خلقه وهو يعلم قصوره وأنه صار ناضجًا في التو واللحظة.

وحتى لو قرر الله أن ما قمت به يستحق العقاب فلابد أنه سينظر إلى عذابي في الأشهر الماضية، بينما يتم حصاري وعصري وتحطيمي واستنزافي من الداخل والخارج إلى أن استسلمت لهم تمامًا ..... ثم ذبحي بعد قليل...

كانوا جميعًا في استقبالي بمجرد أن دلفت إلى قلعتهم البيضاء السامقة، وعلى وجوههم تلك الابتسامة المزيفة بالحنو والشفقة، وأنا أعلم يقينًا أنهم بداخلهم يرقصون كما كان يرقص أجدادهم البدائيون عرايا حول نار المذبح استعدادًا للأضحية.

لم يساورني أي غضب وبادلتهم ابتسامة شفقة حقيقية، وتمنيت أن يعلموا ما أعلم، فقط هم لا يزالون تحت تأثير أطماعهم الدنيوية بينما تسامت روحي وتاقت إلى آفاق أرحب ...

تركتهم يخلعون ملابسي ووقفت بينهم كما نزلت من بطن أمي بينما يغسلون جسدي غسله الأخير قبل أن يضعون فوقي زي الذبح ويحملوني في رفق مبالغ فيه إلى المذبح،

كنت مولعًا - عندما كنت لا أزال حيًا - بأزياء الأبطال الخارقين في السينما، حينما ينسلخ البطل في لمح البصر من زيه الدنيوي ليتحول إلى الخارق الذي يدافع عن حبيبته / وطنه / الأرض / وأحيانًا عن الكون كله

والآن قررت أن ذلك الزي الأبيض الخفيف هو زيي الأسطوري الذي أجهز فيه للتحول فيه أي ذاتي الأسطورية الجديدة، إنها شرنقتي البيضاء الحريرية التي أدخلها للتحول من دودة قذره إلى فراشة تبهرهم جميعًا...

"فقط لو يعلمون ما أعلم"

أعلم أنني الآن لو بسطت يدي لأحرقتهم جميعًا ناسفًا السقف الأبيض المزين بالمصابيح الصاخبة من فوقهم، لكنني الآن متسامٍ عن ذلك، فقط ابتسم لهم في حنو وشفقة اعتقد إنها كانت ترتسم على شفاه الأنبياء حين يحاول أقوامهم قهرهم تعذيبًا، فقربهم من الحافة عن الطريق الوحي، يماثل تمام اقترابي الآن عن طريق الاستسلام للذبح...

"فقط تمنيت كثيرًا لو يعلمون ما نعلم "

أرقد على مذبحهم الأبيض الناعم، كل ما يمت لهم بصله أبيض ... قلعتهم/ أزيائهم /مذبحهم، وزي الذبح /أبيض، أبيض، أبيض.

إنهم يصرون بغباء على تلويث اللون الأبيض وجعله رمزًا للذبح ولونًا النهاية. ولكن ذلك لا يزعجني إطلاقًا، فلسبب ما أعلم داخلي يقينًا، أن الأبيض هو لون الحافة الأخيرة التي ما أن اجتازها حتى اطّلع على ألوان مبهجة جديدة لم تخطر على قلب بشر من قبل...

والتفوا حول جثتي المددة أمامهم، في اهتمام مترقبين وصول كبيرهم الذي علمهم كل شيء ... وعلى يديه تتم طقوسهم المعقدة قبل إرسالي إلى هناك

توترت أجسادهم في انتباه، وهم يفسحون من بينهم ممرًا لجسد سيدهم الملثم في وقار مبالغ فيه.

اقترب من أذني هامسًا متسائلاً إن كنت جاهزًا للعبور، فأومأت موافقًا، وعلى شفتي ابتسامة الأنبياء / الأبطال الخارقين، الواثقة الحنونة

ألقى نظرة ليتأكد أن كل شيء على ما يرام... ثم أخيرًا نظر إلى جثتي، التي صارت جاهزة تمامًا للرحيل، وتقدم ومن تحت لثامه تبدو ابتسامته الزائفة....

أغلق كبيرهم عينيه لثوان وشد قامته السامقة... ومن خلفه لابد أن الزبانية يعدون المسلخ الأن، لاستقبال الجثة بعد الذبح، فتح عينيه ونظر في عيني مطولاً، تبادلنا ابتسامة حقيقة

هذه المرة، إذ يبدو أن كلينا قد فهم الآخر. هو يستعد لإرسالي وأنا مستعد للرحيل...

أغمضت عيناي للمرة الأخيرة مستريحًا بعد أن اطمئن قلبي لتمام تفاهمنا ...

***

أغمضتهما على الأبيض الناصع ثم فتحتهما بعد ثانية على الأبيض مرة أخرى ... ولا شيء بينهما!!! لا أحلام لا هواجس لا دوامات لا أنفاق تنتهي بضوء باهر، فقط لا شيء...

حاولت أن أحرك رأسي لكن شيئًا ما كبلها، ويبدو أن التكبيل كان مصير ذراعيّ وساقيّ أيضًا، لأول مرة - منذ أن قررت استسلامي- أشعر بالذعر، فكنت أظن أن عبور الحافة يحررني من كل شيء، لكن أن أبدأ حياتي الآخرة بالتكبيل!!! فهو أمر مفزع إلى أقصى حدود الذعر.

حركت عيني إلى أقصى مجالها، يمينًا ويسارًا، حين سمعت همساتهم الفرحة، فرأيتهم جميعا حولي،

بعض الذباحون في زيهم الأبيض كما تركتهم قبل أن أغمض عيني، ومعهم خلطة بشرية عشوائية ممن يظنون أنهم أقاربي وأصدقائي، ولا يعلمون أن صلتي بالدنيويين انقطعت تمامًا حين تحررت قبل المذبح، حتى أعتقد أن تلك الأوصاف الاجتماعية صارت أمرًا بعيدًا، كأنه من تاريخ العصر الحجري .

ظهر الكبير هذه المرة بدون لثامه الشهير، واقترب مني مطمئنًا وأنا أجاهد أن أصرخ فيه :

"إن هذا لم يكن اتفاقنا في النظرة الأخيرة، كان الاتفاق أن يرسلني لا أن يعيدني.

حاولت الصراخ جاهدًا لكن صوتي خرج أقرب لخوار حيواني سمعتهم يضحكون له في حبور...

كانت خيانة حقيقة بعد أن استعددت للرحيل، كيف أعيش عالمهم القذر التافه بعد الآن، وأنا أعلم تفاهة كل شيء، كيف أحيا بينهم وأنا أعلم أنهم لا يزيدون

عن مجرد حشرات لا تعلم مصيرها بينما صرت من أهل الحافة...

استجمعت ما بقي من قوتي في حلقي وأطلقتها صرخة طويله مدوية، لا تتوقف بينما يتحركون في ذعر في كل اتجاه مقتربين ومبتعدين في نفس الوقت.

لابد أن صرختي من القوة حتى أن موجاتها شتت ذرات كل شيء، ولابد أن السقف يتشقق الآن ليخر من فوقهم، فيفنى الجميع وهم راقدون على بطونهم، يحشرون أصابعهم في آذانهم ليستأصلوا أعصاب سمعهم نهائيًا من فرط عذابهم على يدي، لكنهم هم من بدأوا وعليهم أن يتحملوا بعد أن نفذ صبري.

أعلم أن صرختي الخارقة كانت من القوة حتى تشقق لها الواقع المادي كله، وأنسلخ كقشرة عفنة ليظهر الجانب الآخر أكثر ظلامًا أو ضوءًا حسب ما ينتظرهم.

انتهى عصر الابتسامة المشرقة وعليهم أن يستقبلوا غضبي ... أنا الطامة أنا الصاخَّة أنا الطاغية، أنا

جحيمهم الذي اختاروه لينصب ملتهبًا في فتحات أعينهم وآذانهم ولن اتركهم إلا صرعى تحت أقدامي الواثقة.

تألقت صرختي وتنامت، لتصنع جسرًا للعبور إلى الجانب الآخر، وأنا أعبر عليه متكئًا على عصاي في وقار ... فليتبعني من أراد النجاة منكم ...

كادت إرادتي النافذة أن تصل بي إلى حيث تتربع على قمة الكون مبشرة ومنذرة بالوعيد... لكن سمومهم التي ركبوها بعناية أحبطت كل شيء في اللحظة الأخيرة...

إذ شعرت بها باردة في عروقي وتسري لتلوث نورانيتي بطينتهم ... كبلتني عقاقيرهم من داخلي خشية أن يعلم الناس ما أعلم.

جفت صرخاتي تدريجيًا لتتحول إلى طنين كطنين الذباب على جيفة، بينما كلماتهم المتقطعة تحمل معاني لا أدركها فقط كلمات مبهمة عن أن أحدهم هرب وعاد وتم شفاؤه، يتحدثون عن جراحة، وصدمة

وتخدير وأنا أتمنى أن أقطع أذنيّ حتى يصمتوا للأبد

...

كانوا يحسبونني نائمًا بينما لا يدركون كم الصخب بداخلي من جراء الحشود التي تتكاثر في مظاهرات صارخة لتكون مراسم عزائي الأخير... **ولو علموا ما أعلم لولَّوا فرارًا ولامتلأوا مني رعبًا**

.....

التابوت...

... **كألواح** الفتوغرافية الحساسة، في تأثرها بالضوء مكونة صورًا كامله، صُنعت أنفسنا من مادة مشابهة في تأثرها بالأشخاص والأنفس والتجارب، خلال رحلتنا الواثقة نحو يقين النهاية.

وكما تتأثر الألواح بكم الأضواء التي تتعرض لها تبعًا لشدتها وطول فترة التعرض، كذلك تتأثر ألواح ذواتنا الحساسة بكل من يقابلنا، وإن اختلفت درجات التأثر، فبعضهم يؤثر فينا بحكم طول العشرة والصراع، بينما يأخذ البعض الأخر شكل انفجار ضوئي قصير ومفاجئ، تاركًا أثرًا أخدوديًا عميقًا داخلنا، نظل طويلا نتلمس أبعاد تأثيره وعمق مجراه....

ومن الفئة الأخيرة كان حامد طه الجرجاوي الذي لم تتعدَ معرفتي به بضع ساعات من المغرب إلى الفجر في تلك الظروف التابوتية، التي لن تنمحي من ذاكرتي ما حييت، والذي ظللت وإلى اليوم بعد لقائنا الخاطف بسنوات طوال، أتفكر فيه وفي كيفية أن يكون الإنسان أسيرًا لفكرة وهدف، يرضعه مع لبن الثدي ودم الخلاص، ثم يستفحل ويتوحش حتى يأكلنا من الداخل، تاركًا قشرة تبدو حية للجاهلين، لكنها مجرد هيكل ذبابه امتص رحيقها عنكبوت ذهني ضخم مسيطر...

كان لقائي الأول والأخير "بحامد الجرجاوي "في بطن ذلك التابوت الأزرق الذي يحمل جثثنا مع الآخرين مخترقًا أحشاء المدينة التي تعودت على أكل أبنائها منذ قرون، ليلفظنا من قبر حكومي محكم إلى قبر آخر أكثر إحكامًا.

. وكان أن تسللت نسمة باردة طازجة، صناعة شهر يناير من شباك عربه الترحيلات المسيج، فأزاحت – مؤقتًا - رائحة البول وعرق المساجين التي تعودت رئاتنا على تنفسهم يوميًا.

نسمة محملة برائحة المطر المعجون مع تراب وسط البلد، التي أحفظ رائحة تراب شوارعها كاسمي، من طول جولاتي وتسكعي و (سرمحتي) في أنحائها منذ أن حملتني ساقاي، وضُربت بعشق القاهرة - آكلة الأكباد - وليلها المتسلطن المخادع.

أخرجتني النسمة من تركيزي في مصحفي الصغير الذي أفتحه على سورة البقرة حيث بدأت تلاوتها صباح اليوم بنية ختم القرآن.

كانت الإضاءة ضعيفة جدًا بحيث لم أتبين معظم الأحرف وجاهدت لاستخراج ما أحفظ منها، كنت أتشبث به كحصن رباني أخفى نفسي فيه، خارج كتلة اللحم الشرس والعرق، التي أغوص فيها بالفعل،

وملتمسًا بعض الصفاء في كلمات الله علها تحملني خارج هذا الأزرق المغلق بالأقفال الحكومية السوداء.

عندما التقت عيناي بعينيه اللتين تفيضان ببراءة مستسلمة، ودهشه طفل في تناقض فظ مع جسد الثور البري الذي يحمل رأسه الحليق مع الوجه الأسمر الفرعوني جدًا، وكأنه تمثال نسيه صانعوه منذ قرون داخل العربة وبدلة السجن الحكومية البيضاء - التي تحتوي جسده بالكاد، وتتفزر عن عضلاته البارزة - والتي أعرف أن ظهرها طبع عليه بحروف زرقاء وبخط النسخ كلمة (تحقيق)

لثواني غصت في تلك الأعين الطفولية متناسيًا أبعاد الزمان والمكان المقبضين، كان ينظر لي برهبة أعرف أن سببها بذلة التدريب (ترينج سوت)، البيضاء من غير سوء، غالية الثمن بدلاً من ملابس السجن الحكومية (الكستور) بطباعتها الخرقاء الباهتة .

مع تلك الهالة التي تحيط بي، نظرًا لتهمتي المالية الكبيرة للغاية، التي يدرك الجميع سذاجة تلفيقها، مع

نشاطي السياسي المعروف قبلها، تلك الهالة التي جاهدت في ترسيخها بابتسامتي الهادئة الواثقة الدائمة، وصمتي الطويل المفكر.

نزعت عيني من غوصها في المصحف، واستدرت واقفًا أتأمل شوارع وسط البلد من شباك العربة الضيق ذي القضبان الزرقاء الغليظة المتسخة بالتراب ووساخات الأيدي.

كان الطريق مزدحمًا كعادته بما لا يحتمل ذاك الحوت الأزرق الحديدي وسائقه الجندي (الأطبش) الذي شاء حظه العثر أن يقضي فترة تجنيده في جهاز الشرطة، فطالت الرحلة من مديرية الأمن في باب الخلق إلى سجن الترحيلات في قسم الخليفة من عدة دقائق الى قرابة الساعة.

حاولت التماهي مع شوارعي التي أحفظ بائعيها وأماكن عربات الفول والكبدة الملوثة فيها عن ظهر قلب، عندما أحسست برأسه يزاحمني الشباك... أتحت له فسحة للفرجة، فسألني متحرجًا بلهجته الصعيدية القناوية الخالصة

- **ما جربناش نوصل يا بيه**

يا الله ... حتى ونحن في بطن الحوت الأزرق لا يزالون في أسر احترام الفوارق الطبقية

أجبت مختصرًا بدون أن ألتفت، محافظًا على تلك الفروق

- **دقايق**

كنا في طريق صلاح سالم وكانت القلعة على يميننا، بما يعني قرب نهاية الرحلة.

فعاد يسأل

- إحنا هانجعد كام يوم في عنبر الترحيلات.

بدا كمن يريد إطالة الحديث، لكني لم أكن رائق البال فأجبت بنفس الطريقة المقتضبة

- **معرفش**

ثم بدا لي خاطر فضولي فسألته:

- **تهمتك إيه.**
- **جتل مع سبج الإصرار.**

التفت ملسوعًا فقابلني وجهه الهادئ وكأنه ألقى للتو تحية الصباح، لا تهمة تقذفه قذفًا إلى حبل المشنقة أو حضن عشماوي كما يقولون.

رددت في بلاهة

- **قتل ؟!**
- **أيوه يا بيه.**

لم أجد ردًا يليق بابتسامته البريئة وهو يخبرني بكارثته، وأنقذني توقف العربة، وانفتاح بابها داخل وجهة الوصول المنتظرة، "تخشيبة" الخليفة.

ارتفعت صرخات أمين الشرطة في المساجين، مصحوبة بسيل من قيء شتائمه البذيئة، أن يقفوا ويصطفوا استعدادًا للخروج، ذلك السيل الذي قطعه ظهور رأس النقيب "وائل نصيف"، مناديًا اسمي الأول مسبوقًا بلقب (دكتور) في لهجة صديق حميم، وليس آمر سجن لمسجون.

توجهت وحدي نحو الباب بين نظراتهم الفئرانية، مرسخًا تلك الهالة الحامية بالتميز، ونزلت أولاً، حاملاً

حقيبة اليد الكبيرة (هاند باج) التي امتلأ قعرها بخراطيش السجائر مختلفة الأصناف، برغم عدم تدخيني لها، لكنها العملة المحلية داخل حدود دولة مصلحة السجون .

وضع الضابط وائل يده على كتفي، في طريقه ليسلمني إلى ضابط آخر يقف في أخر الرواق، وأخبرني أن عربة أخرى ستحملني في تمام السادسة صباحًا، إلى وجهتي لتسكيني في سجن المزرعة بطرة.

كان "وائل نصيف" من العسكريين القلائل الذين مازالوا يحملون قلب إنسان تحت الرداء العسكري بنجومه اللامعة.

تكونت بيننا صداقة من نوع غريب، أثناء تواجدي في ذلك السجن المخفي عن الأنظار، تحت أرض مديرية الأمن، ويجمع السياسيين ورجال المال والأعمال والمتهمين من علية القوم، ولما كنت أجمع الصفتين - السياسة والتهم المالية- فكانت بيننا حوارات عميقة، عن حال البلد، ورعونة النظام

الحاكم التي لن تؤدي إلا للثورة (كان تنبؤًا مني قبل سنوات من اندلاعها)

وكنت دائمًا ما أردد خشيتي أن أول من سينسحق بين سندان النظام الراسخ، ومطرقه الثورة العنيفة الهوجاء هو جهاز الشرطة بأفراده وضباطه

فكان ينهي الحوار ضاحكًا

- **قلتلك ما ينفعش نبقى بين الشعب والنظام، لأننا احنا النظام نفسه**

ثم يعلق على ذكر المطرقة والسندان بأنه لا يعرف لي وجهة (شيوعي أم إسلامي)، فكنت أجيب بما يزيد من حيرته، مصرًا على أنهم أول من سيضحي بهم النظام، ثم يتطرق الحديث إلى التاريخ أحيانًا، والاقتصاد أو الدين أحيانا أخرى.

باختصار.... كان يمثل لي فرصه لتفريغ ما عندي، وشحذ عقلي قبل أن يتوقف من قلة الاستخدام، وكنت أمثل له شخصًا جديرًا بالمحاورة وسط غلاظ القلوب فارغي العقول، من الجانبين "الشرطة والمساجين"

ووصلنا الى الرواق المتسع المتسخ الحوائط، السيء الإضاءة كأنه برزخ يؤدي إلى قبر قديم.

سلمني وائل نصيف لملازم كبير السن، عظيم الكرش، يبدو واضحًا أنه قضى عمره بين صفوف الأمناء والأفراد، قبل أن يترقى تمهيدًا لخروجه من الخدمة، مع توصية - من وائل - بحسن المعاملة إلى أن تصل عربه ترحيلات سجن المزرعة، وإن كان ذكر سجن المزرعة وحدة كفيل بحسن المعاملة.

استلم الضابط الجديد ملفي، وأشار لي مع نظرة متفحصة، أن أقف في ركن القاعة الأقصى، إلى أن تنتهي إجراءات تسليم وتسلم الجثث..

ودعني النقيب وائل قبل أن ينصرف في مصافحة حارة اجتذبت أعين باقي المساجين والعساكر وامتعاض الضابط "أبو كرش" الواقف في ملل، الذي يبدو أنه شعر أن وداعنا الحار المهذب يخترق حاجزًا تم وضعه بعناية بين عالم الشرطة بقبضته المهيمنة، وعالم المساجين الخاضع.

كان رفاق العربة/التابوت، قد اصطفوا الآن في طابور من صفين، وقف حامد في نهاية أحدهما عملاقًا تائهًا، تمامًا **كجاليفر** في بلاد الأقزام، استعدادًا لتلقي الأوامر.

وسرعان ما انصرف الضابط الجديد، تاركًا الجمع لشرطي من الدرجة الأولي أعظم منه كرشًا، ومجموعه من العساكر، لكنه انتحى بالشرطي جانبًا قبل رحيله وأشار نحوي إشارة أعرف أن معناها أني أحمل توصية هامة .

(شخط) الشرطي (شخطة) مفتعلة في طابور المساجين مع بعض السباب البذيء لزوم الضبط والربط.

ثم توجه نحوي، تسللت يدي إلى باطن الحقيبة قبل أن يصلني وكنت أعرف أن التوصية وحدها لا تكفي، وأخرجت خرطوش سجائر (مارلبورو)، ما أن شاهدها حتى التمعت عيناه واستحالت ملامحه إلى ملامح (جارسون) محترف يخدمك في مطعم فخم:

- **باين عليك محترم وبتفهم**

- **دي حاجة بسيطة**
- **شكلك ابن ناس ومش وش بهدلة، للأسف كان عندنا عنبر (VIP) ، لكن زي ما حضرتك شايف بنوضب ونجدد القسم، ها تضطر تبيت مع الأوباش دول لحد الصبح.**
- **ما فيش مشاكل كلها كام ساعة، لكن عايز حد يجيبلي أكل وبيبسي وإزازة مية معدنية من برة بعد إذنك.**

تعودت مع أمثاله ألا أغتر باحترامهم الزائف وأن أحافظ على لهجة مهذبة لتجنب انقلاباتهم المفاجئة.

واتبعت قولي بخرطوشه أخرى محلية الصنع (كليوباترا) كثمن للوجبة، فاختطف الخرطوشتين قائلاً في لهجته (الجرسونية):

- **حالا يكون الأكل عندك ولو عايز حاجة تانية أنا الصول فتحي.**

ثم مبتسمًا في أبوة مصطنعة

- **عم فتحي...**

وانصرف وهو يكاد يرفع يده في تحية عسكرية، بعد أن أشار لي أن أجلس على كرسي، تم وضعه جانبًا لي خصيصًا، مع وعد بإرسال الطعام والمياه على الفور.

جلست في انتظار انتهاء الإجراءات، بينما توجه الشرطي إلى باقي المساجين الواقفين بعد أن استعاد غلظته وأمرهم بالجلوس القرفصاء في أماكنهم، والانتظار هكذا، كما اعتاد أجدادهم أمام العسكر والحكام على مر التاريخ.

أخرجت مصحفي وتابعت القراءة، إلى أن جاءني جنديًا يحمل كيسًا بلاستيكيًا يحوي المياه المعدنية والغازية وكيسًا آخر به بعض شطائر الكبدة والسجق أعرف من رائحتها أنها من العربة (فاروق الجن) أمام القسم، التي طالما وقفت عند شطائرها مستمتعًا بالتحبيشة الشهيرة لصاحبها، والتي صنعت بإتقان خصيصًا لإخفاء مصدر لحومه.

ومن آخر الرواق رفع عم فتحي يده بتحية تعني (**الأمانة وصلت؟**) فرفعت يدي بتحية مماثله تعني (**كله تمام**)

ثم رفع صوته آمرًا الجالسين على الأرض بالقيام وأخبرهم أن بعض الأهالي ينتظرون ذويهم من المحابيس الذين عرفوا موعد ترحيلهم فانتهزوا الفرصة، وسرعان ما دخل الرجال بابتساماتهم المشجعة المزيفة والنساء بدموعهن الحقيقية، ووجباتهن المصنوعة على عجل لتسند رجالهم خلال الترحيل المرهقة.

كان العساكر(يشخطون)و (ينطرون) لصنع النظام في الحشدين - الأحرار والمحابيس - بعد أن اختلط الجمعان ثم ،لانوا قليلاً بعد أول عشرين جنيهًا تم (كرمشتها) أو عدة علب سجائر في يد الصول الذي صار مسؤولاً من الآن عن " الجثث " مطمئنًا إلى أن الجميع بالفعل في داخل رواق القسم (التحتاني) ، ولن يستطيع واحدٌ منهم الفرار ، فتلكأ في عد وتجميع الغنائم هو وعساكره معطيًا الفرصة لبعض السلامات والقبلات والأحضان، التي طال بعضها عن حدود المعتاد، لاسيما إن كان الحاضن والمحضون زوجين

أو حبيبين أذهلهما الفراق عن حدود التحشم ، مما استدعى تدخله زجرًا أو تحذيرًا غير جدي.

ولما كنت بلا أحد في انتظاري، اكتفيت بتناول طعامي على مهل، والفرجة منتظرًا ما يلي، فكان طاقم العسكر ينظرون لي مشفقين، حتى أن أحدهم مال عليّ سائلاً

- محدش يعرف إنك بتترحل النهارده؟

"كنت أتعمد ألا أجبر أحدًا من أهلي أو أصدقائي على التعرض لمثل هذه التجربة المهينة، وأتعمد أن تكون الزيارات واللقاءات في أضيق الحدود إلى أن تنجلي المحنه"

هززت رأسي نافيًا ومبتسمًا في تأدب - كالعادة - فقال في حذر هامس.

- **مش عايز تكلم حد في التليفون؟**

علمت أنه يصعب عليهم ألا يخرجوا مني (بسبوبة) جديدة في مثل هذا الموقف.

فأخذت التليفون من يده شاكرًا، وأنفحته علبة سجائر تحدثت حديثًا قصيرًا مع المحامي الذي طمأنني كعادته أن موقفنا ممتاز، وأن المسألة مسألة وقت، كأن ذلك الوقت الذي يعنيه وأقضيه في تلك الحبسة نوع من الرفاهية.
فألقيت عليه بعض التنبيهات والأوامر بخصوص الأعمال وأغلقت الخط.

وانشغلت بالفرجة على من حولي، حتى جاء حامد الذي كان مثلي لا أحد في انتظاره، وإن اختلفت الأسباب، فجلس بجانب الكرسي على الأرض، فعرضت عليه شطيرة فقبلها، ولم نتكلم. بينما يلوكها على مهل.

وسرعان ما انتهت حفلة الترحيب، واستعاد الصول فتحي صوته الميري زاعقًا في الأهالي بالانصراف، وفي العساكر والمحابيس بالنظام، وهو مازال يعد غنيمته - التي أعتقد أنها كانت تتكرر عدة مرات يوميًا - لا بد وأنه سيصبح حوتًا كبيرًا

في يوم ما، وإن كنت أوقن أن الضابط (أبو كرش) يقاسمه أرباحه، وربما مأمور القسم كذلك.

انضم حامد مهرولاً، ولم ينتهي بعد من ابتلاع شطيرته، إلى طابور المساجين الذين انتهى الصول من عدهم ورصهم، ثم أمرهم بالتحرك نحو عنبر الترحيلات، وأشار لي من طرف خفي أن أمكث مكاني حتى ينتهي من عد وتسكين خرافه الضالة.

ثم أمرهم بالتحرك وحولهم العساكر إلى أن فرغ الرواق تمامًا من حولي.

أخرجت مصحفي علّي أجد فرصة لإنهاء السورة التي كنت بدأتها في الصباح، فقرأت قليلاً ثم أملت رأسي إلى الخلف، ورحت في سِنة صافية من النوم بلا أحلام كالعادة، فعلى ما يبدو أن الأحلام نفسها تخشى اختراق حدود السجن.

أفقت من غفوتي القصيرة بفعل برد (طوبة) الذي نفذ ببراعة إلى نخاع عظامي فأيقظني، لأجدني وحيدًا تمامًا داخل

الرواق / البرزخ ذو الإضاءة الصفراء الخافتة الذي هدأت ضوضاؤه تمامًا.

كانت تلك لحظة من اللحظات النادرة التي أختلي فيها مع نفسي طوال أيام المحنة الطويلة، أحسست برغبة عارمة في البكاء شجنًا مع السكون وصوت الريح الآتي مباشرة من شوارع أعشقها، ومحرم على قدمي لمس ترابها.

كان الجو العام يحملني إلى عالم خارجي حرمت منه قسرًا، وأنا الذي لم أعتد - منذ أن حملتني ساقاي - المكوث بين جدران بيتي يومًا كاملاً، أدركت أن ما أمُر به من جراء وحدتي، تاركًا العنان لأفكاري في لامعقولية الموقف العام وعبثيته استحالة الأمل في التغير في المستقبل القريب، حتى خشيت أن أجن، وتمنيت أن أجد من أحادثه في أي حوار جاد كان أو تافه، يقطع على عقلي شطحاته. كان عقلي يأبى إلا استحضار ذلك الشعور الحارق الخانق اللزج والذي

كنت أعانيه وقتها، ويأسي كل استيقاظ عند مواجهة واقع أن ما يحدث ليس كابوسًا.

ويبدو أن الله استجاب لي في شخص عم فتحي، الذي دخل حاملاً في يده كوبي شاي، ووراؤه جنديًا حاملاً لكرسي و (طقطوقة)، وقد أعد العدة لدردشة ربما تستغرق الليل كله.

جلس فتحي في إجهاد وفتح أزرار قميصه العسكري التماسًا لبعض الراحة لـ (كرشه) الضخم، وتعبيرًا عن أن الجلسة ودية وتخرج عن نطاق الميري.

لكنني إذ خطر ببالي حامد الجرجاوي - الذي لم أكن قد عرفت اسمه وقتها - كانت لي خطة أخرى لقضاء الليلة.

تسللت حرارة كوب الشاي من كفي إلى أعضائي مع رائحته العطرية الدسمة، مخلفًا نوعًا من السلام المؤقت مع النفس.

كان الصول فتحي يجلس مسترخيًا بوجهه الأبيض، المختلط بحمرة تدل على حسن تغذية ومعيشة رافهة، ولم يكن ينقصه إلا الجلباب الأبيض الواسع حتى أُحس أننا في صالون داره.

أخذ يسألني عن قضيتي المعقدة، ويضع لي خطة دفاع لا تخيب - من وجهة نظره- فهو كما يدّعي، قد أصبح من طول ما شاهد وعايش في سراديب الأقسام والمحاكم يعرف ويفهم أكثر من كل المحامين الفطاحل ولكنهم (يهبرون) الملايين من الزبائن بينما هو مدفون بالحياة في قسم الخليفة بين حثالة المساجين.

ابتلعت الكلمة، لإدراكي أنه بلغ معي حالة من الأريحية أخرجتني - في عقله الباطن - من طائفة المساجين الحثالة، وكدت أخبره أنه – وأمامي - في يوم واحد كون ثروة صغيرة من هذه الحثالة، لكنني آثرت السلامة.

ولكن الغريب أنني أدركت فيما بعد كم كانت آراؤه سديدة في خط سير قضيتي.

كانت الساعة تناهز الثامنة مساءً عندما أخبرته أنني أريد أن أدخل العنبر مع باقي المساجين، ارتد مدهوشًا وقائلاً:

- **وإيه اللي يطلعك مع الواغش اللي فوق، خليك قضِّي ليلتك هنا على الكرسي للصبح وما تشيلش هم حاجة...**

لا أعرف حقًا ما كان يشدني لدخول العنبر مع المساجين رغم أن وضعي الحالي هو ميزة أحسد عليها، والتخلي عنها هو محض حماقة.

لم أكن أميز حقًا أهو فضولي نحو حامد؟ أم هو البرد داخل الرواق الواسع أم الملل؟ ولكن في الحالتين كان العامل المرجح أنني أخشى الجلوس وحدي بعد انصراف فتحي، والتفرغ لنفسي وللحوار مع أفكاري المجردة التي أخشاها فعلاً، وكان علاجها هو انشغالي بأي حوارات أخرى، ولكنني عرفت في مستقبل أيامي، أننى لم أكن مخطئًا حين طلبت الدخول...

وأمام إصراري لم يجد عم فتحي بدًا من اصطحابي إلى عنبر الترحيلات مع توصيات حفظتها من أول ليلة لي في هذه الحبسة، ضد السرقة ونصب وبلطجة المسجلين.

وعلى عكس ما توقعت، كان العنبر يقع فوق القسم لا تحته، ويفضي إليه سلم ضيق بعدة لفات، يعادل ارتفاعه ثلاثة طوابق، لكنه يتسع لشخص واحد، لا أعلم لماذا ذكرني بالسرداب الذي صعد فيه (فرودو) وصحبته إلى باطن الجبل في رواية (تولكين) الشهيرة، ليقابل عنكبوته العجوز.

انتهينا إلى بسطة بها ثلاثة أبواب، كتب على أوسطها وأكبرها بخط النسخ الحكومي عنبر الترحيلات كان الباب الأيسر مفتوحًا على مساحة مظلمة بينما كتب على الباب الأيمن بخط أصغر كلمة "الحريم"

نظرت إلى عم فتحي، الذي أخذ يلهث حتى ظننته مفارقنا الآن شهيدًا للسلم، فأخبرني من بين لهاثه:

- **اللي على اليمين ده عنبر ترحيلات الحريم، يتجمعوا من الأقسام والمديريات، على سجن القناطر أو يترحلوا على المحافظات، واللي على الشمال ده كان عنبر السياسيين والأموال العامة، (VIP)زي ما قلتلك، بس مغلق للتوضيب والنقاشة وخلافه...**

ثم أكمل ضاحكًا في سخرية:

- **لزوم راحة البهوات الباشوات.**

خبط عم فتحي عدة خبطات ثقيلة على الباب، منبهًا مَن بالداخل أنه قادم، وأن الباب سوف يفتح الآن، في سلوك استغربته من شرطي، وظيفته أن يفتش على كل ما هو ممنوع، لكنني عرفت أنه سلوك متعارف عليه، يصل إلى حد التقديس القانوني بين المساجين والشرطة....

إن الليل ملك للمساجين فقط، ولا يفتح عليهم الباب إلا في الحالات القصوى، أو عند طلب المساجين أنفسهم أن يفتح لهم، لنوبة مرض أو وفاة أو حريق.

ما أن فتح الباب ذو الصرير المزعج حتى داهمني هواء العنبر الساخن، الذي لم أتخيل عفن رائحته حتى أنني فكرت أن أتراجع - قبل أن أُتقيأ ما في أمعائي - وأعود للجلوس على الكرسي المنفرد في الرواق، لولا خشيتي من سخرية عم فتحي...

دخلت وورائي الصول ينادي على أحدهم بصوت تعمد فيه (الجعير) و (التطجين)

- **خد ياد يا (ميخا) يا ابن الـ (.....)**

مع سيل سباب يبدو أنه محبب إلى قلب السيد (ميخا)، الذي يشبه السحلية حجمًا ومضمونًا ووشمًا على الأذرع والصدغين، فقد جاء مهرولاً ومبتسمًا، وبلهجته السكرانة الممضوغة الأحرف:

- **تؤمُرني يا عم فتحي يا كبير.**
- **خد الباشا سكنه في مكان كويس يا ابن الـ ..... ولو الصبح اشتكالي، أنت عارف هعمل إيه فيك وف أمك يا.....**

ويبدو فعلاً أن المدعو (ميخا) كان يعاني خللاً عُصابيًا ما يجعله فرحًا مستبشرًا عند ذكر أعضاء أمه الخاصة من قبل أفراد الشرطة.

فتهلل مشرقًا ككلب مطيع بلا ذيل، ووعد الصول بأنني أمانة في رقبته، واتبع قوله بصفع رقبته فعلاً مرتين تأكيدًا، وأنه سوف يرفع رأسه كما اعتاد دائمًا.

فودعني عم فتحي وأعاد التوصيات التي حفظتها، ثم أغلق الباب من ورائي بمزاليجه الضخمة.

ولما تأكدت من خروجه التفتُّ إلى (ميخا)، لأجده قد تبخر بلا أثر، وكانت أمامي قاعة تتسع لمائة شخص على الأكثر لكنها تحمل ما يزيد عن ألف وخمسمائة بلا مبالغة، كان المحابيس يموجون فيها فوق بعضهم، كديدان الأرض، حتى أن بعضهم ينامون وقوفًا.

لم أشعر بهذا الشعور الممض بالانسحاق والدونية في حياتي من قبل.

أن تكون فردًا في قطيع من الديدان، التي تتلوى في مزيج عفن من رائحة العرق، وغازات البطون، وروائح أخرى، أقذر وإن لم أستطع تحديدها.

"كنت أعرف أنهم يتعمدون ذلك الإذلال، ليس فقط هنا إنما في جميع نواحي حياة المصريين، بداية من طوابير الخبز، إلى تراخيص المرور، لكن هنا يبلغ سقف الإذلال والإهانة منتهاه، بما لم يخطر بفكري، أنني أقف بالفعل على الحد الفاصل، بين أبسط حقوق الإنسان، أو حتى حقوق الحيوان، وبين العيش في بركة عفنة، كالديدان.

خطر لي أنهم يرسخون فكرة كوننا شعب من الدود لا نستحق أكثر من فتاتهم

...أدركت كم كان الصول فتحي كريمًا حين عرض عليّ البيات في الرواق السفلي، وكم كنت كما يراني أحمقًا، حين طلبت الصعود.

عدت أبحث عن (ميخا)، وكنت أعي جيدًا أنه بمجرد انغلاق الباب ورائي، فقد انتقلتُ إلى سلطة أخرى داخل عالم السجن المحكم التنظيم؛ فلا سلطة هنا لأكثر المساجين المسجلين

خطر، ولا سبيل للعيش حتى الصباح، إلا باسترضائهم بالمال / السجائر، أو إخضاعهم بالقوة.

ولما كانت تفصلني عن إخضاع أمثالهم بالقوة، سنوات من انحناء الظهر على الكتب والأبحاث، التي أذهبت طبقات من بصري، وأجبرتني أن أستبدل عينيّ بمنظار سميك يأكل نصف وجهي، فلم يكن من سبيل إلا استبدال جزء لا بأس به من مخزون خراطيش السجائر، ببعض الكرامة حتى يطلع الصبح.

وأخيرًا ظهر لي (ميخا)، يجاهد حتى يشق الكتلة اللحمية المتداخلة، في طريقه إلى شخصي، مددت يدي أبحث عن (خرطوشة) أخرى مع اقترابه، ولكنني التفتّ والتفت معي إلى نداء صاخب يخصني.

كان أحدهم في ملابس ريفية يرفع عقيرته من أحد الأركان، بلقبي العملي (يا دكتور)، يقولها صارخة، ممطوطة مصحوبة باسمي.

فأشرت إلى صدري بمعنى "تقصدني أنا"

- **أيوة إنت تعالى .**

غصت داخل اللحم البشري اللزج، إلى أن وصلت إليه محافظًا ألا أضيع حقيبتي، أو ينخلع بنطالي.

فسحبني من يدي كالبهيمة، وأكمل الرحلة الزاحفة، فاضًّاً تشابكات الأذرع والرؤوس، كأنه مستكشف في غابات السافانا لو أن للسافانا هذه الرائحة.

وصلنا إلى ركن القاعة الأقصى، حيث فرشت مساحة واسعة بالبطاطين الميري والملكي، يفترشها مجموعة متلاصقة يبدو أنهم قد دفعوا جيدًا مقابل هذه الخدمة المميزة، والجلوس على أرضية وثيرة مغطاة!!!

وفي أقصي الركن، كانت تنسدل ستارة من ملايات الأسِرَّة، صانعة مع مثلث جداري الركن خيمة كاملة مغلقة على من فيها.

تركني الدليل قائلاً بأدب زائد: "اتفضل حضرتك"

وجلس بين رفاقه خارج الخيمة.

فأزحت الستار، وأدخلت رأسي، فقابلني وجه " الريس علاء سمكة" الضاحك فاردًا ذراعيهِ على اتساعهما، احتضنته مستغربًا؛ فسمكة كان فيما مضى زميلاً لي في المدرسة الإعدادية في حيِّنا القديم، لكنه - على ما يبدو- كان أكثرنا وعيًا بظروف البلد ومستقبلها آنذاك، فترك المدرسة والتحق "بدولاب" أحد أكابر البلطجية المعروفين في القاهرة وقتها، " المعلم فلفل البرنس"

وسرعان ما انخرطتُ أنا، في معركة التعليم، خلال الثانوية، ثم الجامعة، ثم الدراسات العليا والبحث العلمي، بينما شق هو طريقه بكفاءة وقوة، ليرث تركة معلمه بعد وفاته في السجن.

...ولم يكتفِ بذلك حتى أضاف الى البلطجة وتجارة المخدرات نشاطه الأصلي، تجارة السلاح، والآثار، والاستيلاء على الأراضي، حتى صار ملكًا متوجًا في مجاله، وصارت له علاقات راسخة بالطبقة العليا، من رجال

الأعمال، والفنانين والساسة، حيث يقوم بما يحتاجونه من قذارة بدون أن تتسخ أيديهم. حتى وصل نفوذه إلى داخل وزارة الداخلية نفسها.

ولابد أن حبسته هذه من ضمن "زر الرماد في العيون المراقبة"، حيث تعودوا أن يعتقلوه كل فترة بأمر اعتقال جنائي لعدة أشهر أو أسابيع، فيدير أعماله من الداخل بأحسن ما يكون، ثم يخرج بعدها لمتابعة أركان مملكته المترامية.

رحب بي سمكة ترحيبًا حارًا، مرددًا كوني زميل الصبا وابن جيهته، في شرف أصبغ عليّ من فخامته فلم أنكره.

...دلفت إلى داخل الخيمة، التي كان ضلعيها عبارة عن مصطبة، فرشت بعدة طبقات من البطاطين النظيفة، تتدلى إلى الأرضية، التي فرشت كذلك فصارت كأنها فراشًا كبيرًا ناعمًا.

كانت مجموعة الوجوه الموجودة من علية القوم و(زبدة) المجتمع، مألوفة لي في معظمها، وإن ميزت بينهم وجه "نبيل

عازر" المفكر اليساري، والناشط السياسي الذي هلل لرؤياي بصوته الأخنف قليلاً.

- **هو الحبايب كلهم شرفوا النهاردة ولا إيه؟؟**

احتضنته وعلت أصواتنا في ترحيب مرح، حتى وجدت من يشدني من سترتي من الخلف قائلاً في حدة:

- **بطل دوشة وصداع يا جدع إنت.**

كان إبراهيم نصر الدين المناظر الإسلامي الشهير جالسًا متربعًا بلحيته المحددة وجسده الضخم.

صحت في دهشة حقيقية وأنا أجذبه مساعدًا له ليقف فأحتضنه وسط تهليلنا المرحب وأنا ألهث:

- **إيه اللي لم الشامي على المغربي؟**

فقاطعني صوت علاء سمكة الضاحك بفعل السُطَل

- **السجون ياما بتلم يا دكترا.**

ثم انهمك في ضحكته الماجنة، التي صقل حشرجتها الحشيش على ما يبدو، وانتقلت عدوى الضحك إلى الجميع فقد كان قوله حقيقة واقعة، للأسف.

"يبدو أنه مصيري دائمًا أن أقف بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، في هذا البلد الخرب، ومن خلفي علاء سمكة ممثلاً لقوى الشعب العامل وأحد أعمدة الجريمة المنظمة".

انهمكنا قليلاً في سلامات وأخبار، حتى أمسك علاء سمكة كتفي بيده الضخمة قائلاً ومشيرًا إلى فتحة صغيرة في أقصى الجدار، سترت بستارة بلاستيكية سميكة صفراء.

- **ادخل خدلك دُش وإحنا مستنينك، مش ناوين نروح في حته الليلة.**

ومن جديد علا ضحك الجمع على دعابته بينما أخرجت بدلة تدريب نظيفة بيضاء من حقيبتي وغيار داخلي، ودلفت إلى الحمام، الذي كان نظيفًا إلى حد ما، مع زجاجة سائل استحمام (شاور جل) في لمحة رفاهية مقصودة، فأنا أعي جيدًا أن ثمن هذه الليلة، في هذا المكان، بهذا المستوى، تكاد تماثل أو تفوق ليلة أحد الفنادق الكبرى ذات السبع نجوم.

كان الماء مثلجًا، لكنه ساعدني أن أستجمع شتات نفسي، وأخرجتني البرودة من أفكاري الهائمة في السواد، ليتركز تفكيري في لسعة البرودة والألم اللذيذ، ومن جديد عدت أفكر في نظريتي، عن كون الألم الجسدي قد يكون مهدئًا للألم النفسي، الذي هو أشد فتكًا وضراوة.

ولما صفت أفكاري قليلاً، تذكرت حامد الذي لم أكن أعرف اسمه لذلك الوقت. فقط أعرف أوصافه وملامحه.

- فخرجت منتعشًا بين ترحيبات صاخبة مرحة، من عينة نعيمًا يا عريس ...ويا خارجة من باب الحمام....

"يبدو أن جو السجن يزيح الوقار الصناعي، الذي نكتسي به قسريًا في حياتنا الاجتماعية، ويترك الجميع مجرد صبية يمرحون في انتظار الآتي، أو ربما تناسيًا لذلك الآتي"

جلست على الأرض، مستندًا على المصطبة المفروشة، فأنَّت عظامي عندما فردت ساقيَّ لأول مره منذ الصباح، ووجدت

في يدي كوبًا بلاستيكيًا من الشاي المغلي المعطر بالنعناع، فأكمل انسجامي مع اللحظة .

اقتربت من علاء سمكه وأخبرته أنني أريد شخصًا ما كان معي في عربه الترحيلات ولا اذكر اسمه، فطلب أوصافه التي اعتقدت أنها مميزة.

فتح الستار مناديا (ميخا) ذراعه الأيمن في التخشيبة. فأعدت تلاوة الأوصاف عليه بطوله وعرضه وسحنته الصعيدية

- **فنظر لي نظرة مع تعبيرات وجه ذات إيحاء بذيء.**
- **وعايزه ف إيه ده بالضبط.**

لطمة سيده على قفاه زاجرًا، أن يسرع بالنداء على من أتوا مغرب اليوم من مديرية الأمن ويبحث بينهم، ثم قال معتذرً:

- **لا مؤاخذة يا دكتور، أصل الواد ده "خـ...."**

ووصفه بلفظ شعبي خارج دارج من ثلاثة حروف، يعني شاذٌ أو مثليٍّ.

فتسألت مستغربًا:

- **هو كده فعلا؟ ولا بتشتمه وخلاص؟**

- **لا فعلاً ورحمة أبويا ده "...." رسمي، ناقصله رخصة بس، ويبقى "...." برخصة.**

ثم ضحك ضحكته الحشيشية المعهودة

"كان انتشار الشذوذ بأنواعه، والزنا، بين أبناء هذه الطبقة معروف وأحيانًا مدعاة للفخر ، ويبدو أن طول العيشة في السجون والبعد عن النساء ،أدى أن يحل بعض الذكور محلهن لإيجاد نوع من التوازن ،ونزح بعض الطاقة اللازمة ، لذلك كثيرًا ما تجد نوعًا من الرفقة أو الزواج الذكوري بين ذكر موجب مسيطر، وآخر يقوم بدور الزوجة الحنون، كما قد تنفلت الأمور ويقوم أحدهم بعمل شبكة دعارة ذكورية حقيقة، في علاقات مؤقته مدفوعة الأجر، وكانت سجون الحريم تماثل ما يحدث في سجون الرجال من حيث السحاق ، مما يدل على خلل المنظومة من الأساس ، ذلك ما أدركته الدول الغربية فطبقوا ما أسماه فقهاء الإسلام من قرون (حق الخلوة الشرعية للسجين)"

أوقفت أفكاري عن استرسالها، بعد أن ماجت أمعائي قرفًا . وبينما أنتظر أن يأتوا لي بحامد، التفتُ إلى نبيل عازر مشاكسًا ومشيرًا إلى فكره الماركسي:

- ينفع تبقى قاعد هنا مع برجوازية التخشيبة وسايب "البروليتاريا" برة، يتعذبوا؟

ابتسم ابتسامة مريرة محملة بتناقضنا اللاذع :

- أصل أنا عندي السكر، ما استحملش.

"وابتلعت تبريره المكشوف، فكلنا هذا الرجل ندافع عن حقوق من تفصلنا عنهم عمدًا آلاف الأميال والجدران، نطالب دائمًا بانتصارهم، في معركتهم الحتمية التاريخية الأزلية مع السلطة، بينما ننعتهم - كصفوة مفكرة - على مر التاريخ دائمًا بألفاظ من عينة (العامة، والسوقة، والدهماء، والحرافيش، والمهمشون ..... الخ)"

ثم انهمكنا أنا وهو، وإبراهيم نصر الدين في نقاش حول اتجاه النظام الأمني في تلفيق القضايا للناشطين كي لا يصنع

منهم شهداء ويفتح عليه نار منظمات حقوق الإنسان في الخارج.

فتح (ميخا) الستار، وأطل برأس السحلية خاصته قائلاً:

- **الجثة المطلوبة وصلت يا معلمي.**

ودفع بحامد إلى الداخل، الذي اصفر وجهه نتيجة بحثهم، واقتيادهم له بغلظة، ظانين أنه قد سرق شيئًا من أحد البهوات.

دخل حامد فوقف علاء سمكة ممسكًا بتلابيبه قائلاً

- **أخد منك إيه الواد ده يا هندسة.**

قمت ملسوعًا بعد أن أدركت خطأي في حق الرجل، إذ لم أوضح سبب بحثي عنه من البداية :

- **سيبو يا معلم، مخدش حاجة دا صديق.**

تركه المعلم لي على مضض متعجب، فانتحيت به ركنًا وأنا أهدئ من روعه مرحبًا به، وجلست ظهري للمصطبة بينما قبع متربعًا حذرًا أمامي، أدركت في الضوء أن سنه يستحيل أن يزيد عن العشرين عامًا بأي شكل.

عرَّفته بنفسي وقضيتي المعقدة، وسألته عن اسمه الذي أجهله فأجاب في فخر:

- **حامد... حامد طه الجرجاوي**
- **أهلاً يا حامد، إحنا أصلنا ما كملناش كلامنا في العربية، قلت أدردش معاك شوية.**

ثم سألته مباشرة.

- **أنت فعلا متهم بالقتل؟**

هز رأسه إيجابًا بنعم ثم بلهجته الصعيدية الرجولية الفخورة:

- **جتلت خمس رجالة يا باشا.**

صحت منبهرًا..... **خمسه؟؟**

قال مبتسمًا في فخر طفولي كأنه قائد روماني يقص على بطولاته

- **أيوه جتلتهم لحالي "وحدي"**

قاطعنا (ميخا)، الذي لاحظت نظراته غير البريئة إلي حامد، وهو يقدم إليّ طبقًا مترعًا بتشكيلة مختلفة من المخدرات،

ما بين ملفوف، ومسحوق، وأقراص، مع غمزة من عينه ناحية المعلم سمكه الذي رفع يده فوق رأسه بالتحية.

رفضت بأدب قائلاً للمعلم سمكه، إنني لا أتعاطى أي مخدرات ولا أدخن السجائر، لكنني اعتدت أن أشرب الشيشة في الخارج!! وكنت أعرف أن ذلك مستحيل في التخشيبة.

لكن سرعان ما وجدت بين يديَّ، جوزة بدائية على رأسها حجرًا مترعًا بمعسل القص، تأكدت من (ميخا) - الذي صرت أشمئز منه كما أشمئز من صرصار خرج لتوه من بالوعة الحمام - إنه معسل فقط بدون "إضافات" فأكد لي وهو يقسم:

- **عيب يا باشا، هو أنا ها أغش أصحاب المعلم برضو؟**

تركته والتفتُ إلى حامد بينما تصنع انفجارات النيكوتين الدوامية في عقلي المحروم منها، سيمفونية أضواء هادئة

- **كمل يا حامد.**
- **أكمل إيه يا باشا؟**

- **احكي الحكاية من الأول خالص وبراحتك.**

استراح حامد في جلسته، وبدأ يقص عليَّ حكايته المكررة، والتي غيرت حياتي إلى اليوم.

بعد أن زال توتره، وعرف أن استدعائي له لا يتعدى (هفة) في رأس أحد (البهوات) حتى يسمع حكايته...

استغرق في حكايته عن أبيه الذي أغراه أصدقائه بالحفر عن الآثار بجوف منزلهم ثم قتلوه غدرًا.

وعن أمه التي رحلت به جنينًا لتذوب وسط زحام القاهرة، وتشقى في أسواقها لتربيه على أمل واحد.... الثأر.

كان يحكي عن تنشئته على حلم القتل وتقبل الإعدام في سبيله، بكل بساطة كما يحكي أي شاب في سنه عن أحلام الزواج أو الثراء أو الشهرة، كان حلمه الوحيد أن يغمس يده في دم قاتلي أبيه وينام يوميًا على حلمه وهو يبشر أمه بخمود أنفاسهم إلى الأبد...

وما أن بلغ الثامنة عشرة حتى قررت أمه أنه صار جاهزًا للزواج، فزفته على عجل إلى "زهرة " ابنة إحدى المتمرغات في طين القاهرة مثلهم.

وقبل أن يبلغ العشرين كانت صرخات الوليد الجديد "تلعلع" في جحرهم الرطب، ولما اطمأنت لتواصل النسل، ووجود من يكمل دائرة الثأر من بعده، استدعته ووضعت في يده الطبنجة التي صرفت فيها مدخرات عمرها.

وتهدج صوته وهو يحكي كيف نظر وقتها إلى وليده المتعلق بثدي زوجته الصغيرة التي أحبها حقًا ثم إلى الطبنجة، وكيف تردد لأول مرة في عمره بعد أن أيقن أنه يراهما للمرة الأخيرة.

ولولا أن نهرته أمه فاستعاد قليلاً من جأشه، وجلس لتناول عشاءه الأخير من اللحم والأرز والفتة، الذي تفننت أمه في أعدادهم، بينما هو يلتهم زوجته وابنه بعينيه، ويكافح أن يزدرد لقيماته التي استحالت أشواكًا منقوعة في العلقم.

وعند الفجر غادرهم للمرة الأخيرة، وعيناه لا تفارق البناية حتى ابتعدت عن مجال رؤيته للمرة الأخيرة، بينما تتحس يده الطبنجة الملفوفة بعناية وسط ثيابه كوحش جائع مهمته إطعامه.

وبينما استغرق في وصف مغامرة تتبع واقتناص خمسة من أساطين المال والتجارة في مصر، في حكاية تصلح كفيلم سنيمائي تقليدي، غلبتني عيناي فغفوت على صوته الصعيدي الرخيم.

أرحت رأسي على كتفه الصلب، ومددت ساقي ورحت في غفوة حتى أيقظتني الصرخة...

كان الدم يغرق وجهي ورأسي بينما ينتفض جسد حامد بجواري كدجاجة مذبوحة، واشتعل الهرج من حولي وهم يكبلون شابًا قريبًا منه في الملامح والعمر، ويقف فخورًا صارخًا أنه أخذ بثأر أبيه من قاتله.

ملت بجسدي المرتجف وذهني المذعور المشتت فوق حامد الذي تمدد، بينما انغرس نصل بدائي

مصنوع من ملعقة طعام تم سنها بإصرار، وغرسها بمنتهى القوة والسرعة في عينه اليمنى وهو نائم بجواري، فاخترقت جفنه وجوهرة عينه اليمنى، ويبدو أنه لفها في دائرة واسعة ... حتى مزقت أنسجه مخه ...

كان الدم ينبجس في زخات متقطعة، ثم انزاح فصار ينز في ضعف كأنه يخرج بآخر بقايا روحه، بينما يهذي بكلماته الأخيرة التي لم أفهم منها سوى (ولدي، ومرتي) ثم سكن إلى الأبد...

انهرت تمامًا وأنا أصرخ في جثته وفي كل من حولي حتى تكالبوا عليّ وحملوني بعيدًا عن الجثة وبركة الدماء.

ويبدو أنني غبت عن الوعي، وأفقت على ملحمة هياج العنبر المكتظ على سلطته، ومحاولة الضباط وجنودهم إعادة الضبط والربط وتفريغ العنبر في طابور منظم هابطًا إلى الأسفل عبر السلم/الكهف، فكانت النتيجة (هرجلة) قاتلة، كدت انسحق فيها تحت الأقدام، لولا يد (ميخا) التي امتدت لتخرجني قبل

الضياع في نهر اللحم المذعور، من جراء صراخ الجند وضربات الأحزمة التي انهالت بعشوائية كأمطار سادية في كل اتجاه.

انهار التنظيم الاجتماعي الذي صنعه المساجين، حيث كان المعلم سمكة الذي انسحقت أضلاعه تحت الأقدام يصرخ كامرأة تلد حتى خمدت أنفاسه، بينما يحتضن نبيل عازر غريمه الإسلامي ليتساندا هروبًا من جحيم الانسحاق.

حتى "عم فتحي" تحول الى "الصول فتحي" وخلع زي الأب الحاني، واستحال إلى مارد يمسك "بالقايش" صارخًا في جنوده ليستحلب منهم أقصى قسوة وحزم.

كأنما قوض نحر حامد كل الحدود المصطنعة، ولم يبق إلا الحد الواضح بين السجان والمسجون في كتلتين متعاكستين متصادمتين.

... بمعجزة خرجت إلى الباحة وسط الأمواج البشرية، وقد تمزقت ملابسي وضاع كل ما معي، لكن عقلي كان هناك، حيث ترك حامد قطعة اللحم

الحمراء يلتقم ثدي صبية صغيرة في نهم، راضعًا حتفه معجونًا بحقد وحشي، يحيله إلى قربان جديد في ذلك التابوت الوطني الشامل.

....

كنت أجاهد لأتجاوز الزحام أمام نقابة المحامين، المكتظة بالمحتجين المتخلفين من حالة السيولة التي ألمت بربوع بر مصر رغم، مرور سنتين على الثورة، عندما شدني أحدهم من كتفي فالتفت مذعورًا فبدا لي وجه النقيب وائل نصيف - سابقا- والذي ترك صفوف الشرطة بعد أحداث جمعة الغضب، وهو الآن محامٍ ونشاط حقوقي ووجه أعلامي صاعد.

احتضنني بشوق وهو يقول بطريقته الصاخبة.

- **مش ناوي تنضم، ولا أنت تُبت عن السياسة؟**

أجبته في ابتسامة محبطة...

- **كله ضحك على الدقون يا صديقي، والنتيجة مقررة مسبقًا...**

- **واضح أن ما فيش توبة من الفلسفة...**

قالها ضاحكًا.

ثم استأذن مني في الرجوع على اتفاق بالمقابلة مساءً على قهوة زهرة البستان - مقرنا الأسبوعي - خلف "كافيه ريش" العتيق بميدان طلعت حرب.

فاعتذرت هذا الأسبوع متعللاً بأني اصطحب زوجتي وطفلي، ثم سبحت من جديد بين بحر المصريين في غضبهم السطحي، وزهرة تتشبث في ملابسي خائفة – كعادتها - من الضياع في الزحام، بينما أتشبث بكف الصبي الذي يوشك أن يتجاوز سنته الخامسة.

"ولدي الذي تصادف أنه لم يكن يحمل اسمي ولا ملامحي .... إنما يمتلك ذلك الوجه الأسمر الفرعوني جدًا، وكأنه تمثال صغير نسيه صانعوه بين يدي (منذ قرون)

ماذا لو ...

... **بائسًا** على مكتب شبه محطم في قبو يعلو العفن والصدأ حوائطه، تمضي أيامك زرقاء مغبرة مملة، كما اعتادت منذ عشر سنوات، وكما هو متوقع خلال العشر سنوات القادمة على الأقل....

كاتب في أرشيف حكومي، لا مال، لا زوجة، لا أبناء، لا أمل ولا بقايا كرامة، أهذا كل ما استطعت التحصل عليه من كل غنائم العالم المنثورة ما بين الأرض والسماء؟

كم مهملٌ أنت...

طفيل يعيش على فضلات جهاز إداري مهتري، ولا أمل في إصلاحه، تمضي حياتك بين إطلاق اللعنة على مصر وحكومتها، وعلى ماضيك، وعلى نفسك ...

ماذا لو كنت أكثر طموحًا وإصرارًا؟ فاستأنفت دراستك المبتورة عند شهادة الدبلوم، التي تخجل منها، لو كنت

فعلت، ربما كان مكانك الآن في المكاتب العلوية التي يدخلها ضوء الشمس في الساعات الأولى للدوام، أو ربما بين المديرين ذوي الكروش المهيبة.

ماذا لو كنت أكثر قدرة على المغامرة؟ وسافرت مع من سافروا إلى أراضي النفط فغنموا شقة وزوجة وذرية، بينما أنت جالس كقرد منقطع، تتابع أخبارهم في حسرة.

أو هاجرت مع من هاجروا إلى بلاد اليورو أو الدولار، لتأتينا أخبار فتوحاتهم متقطعة، بينما لا يعبأون هم لأخبارنا إطلاقًا إلا على سبيل التشفي في المدفونين تحت ركام العالم الثالث ...

ماذا لو كنت أكثر خسة أو جرأة؟ فقبلت المليون جنيه التي عرضها "عاطف السرساوي " مقابل أن تعبث بوريقة تافهة في ملفه المحفوظ تحت أمرتك. هل كنت شريفًا حقًا وقتها لتفتخر بشرفك. أم أنك جبنت كالعادة؟

ماذا لو لم تترك رانيا قبل أيام من إعلان الخطوبة؟ متعللاً بقلة عقلها، لكنك في قرارة نفسك لم تكن لتتحمل مسؤولية

الزواج وتكاليفه، والمزيد من الكدح والطموح والمغامرة والجرأة، لم تتحمل فكرة أن تأتي للعالم بأبناء يحملون في بذرتهم جيناتك العطنة.

ماذا لو أن أباك تأخر في نومه خمس دقائق أو بكَّر خمس دقائق؟ ففوت الفرصة على السيارة التي دهمته فدهكت رأسه بأسفلت الطريق وأجبرتك على تحويل مسارك إلى مدرسة التجارة لتلفظك سريعًا بلا كلفة لتتمكن من إعالة نفسك وأمك.

وماذا لو كان أبوك موظفًا حكوميًا لا بائعًا سريحًا بالعمولة، وقتها كان معاشه سيغطي نفقتكم إلى أن تتخرج من كلية الهندسة كما حلمت دومًا؟

أو كان ثريًا ترك لكم ما يستركم؟ لكنه كان مثلك منعدم الطموح مصرًا على الاستيقاظ في مواعيد دهم السيارات الفارهة المسرعة.

ماذا لو كانت أمك أو أبيك ذوي عزوة يتحملون ثقلك وتعمل في تجارتهم أو شركاتهم أو ذوي سلطة ليجنبوك مشقة البحث عن وظيفة تسد رمقك بالكاد؟

ماذا لو كان أجدادك المتاعيس قد استوطنوا دولة أخرى تعرف قدر البشر قبل أن تتحد الحدود ويخترعون جواز السفر والتأشيرة التي فاقت المائة ألف وقوانين العمل والهجرة والإقامة.

ماذا لو لم يقابل أبوك أمك، أو تزوج جدك بغير جدتك، ففوتوا على الكون فرصة وجودك التعس.

ما ذا لو أن ذراتك النكدة تكونت في صخرة أو شجرة أو كومة غائط لا تأبه لمصيرها أين كانت وإلى أين مآلها ...

ماذا لو أن نيزكًا ما أطاح بالكوكب في بداية تكوينه فأُعْفِينا من كل هذه الترهات.

ماذا لو لم يتجلَ الله على السماوات والأرض فيفتقهما وتركهما رتقًا كما كانتا، أو نزع فتيل الانفجار العظيم

فلم يحدث، وتركنا ذرات لانهائية تلهو في عالم الغيب؟

ماذا لو فقدت عقلك الآن للأبد أو انفجر على الأوراق المصفرة ليكسبها بعض الحمرة، بدلاً من ترديد وصلتك اليومية من (ماذاتك ولولواتك) اللانهائية ...

الآن اخرس واصمت ... واشرب كوب الشاي الذي لن تدفع ثمنه إلا أول الشهر... فقد برد ... **وأنت تحبه ساخنًا** ...

محلك سر...

كنت منهمكًا في كتابة الفصل الأخير في روايتي الجديدة، أبحث عن وصف لأحد الشخوص.

كان شاذًا جنسيًا، فتحيرت هل أكتبها شاذًا كما هي، أم أُجَمِلَهَا كما تريد الهيئات الدولية وأكتبها " مثليٌّ"، أم أسحب بعض خفة الدم الشعبية فاكتب (عجلة) أو (بيسكليتة) كما يقولون.

أخيرًا ... قررت أن أكتب حرف الخاء متبوعًا بثلاث نقاط؛ لتكتمل في عقل القارئ تلك السبة الشعبية المعبرة جدًا عن الوضع المنحط ....

كدت أكتبها.. ولكنني تذكرت أنى فعلت نفس الأمر في قصة سابقة، نشرتها على الفيس بوك منذ سنوات، وتداعى فورا إلى عقلي تعليق "**زينب عز الدين** " أنني

كتبت كل ما أريد من مواقف حميمية أو محرجة بألفاظ لم تجرحها كأنثى (محافظة) ...

ترى ... أين هي الأن؟

اختفت تمامًا من على صفحات الفيس بوك، وسائر المنصات، ولم يعد متاحًا لي معرفة أخبارها، لا سيما بعد تهوري في المرة الأخيرة، حين قمت بعمل حظر لجميع حساباتها، ورغم أنني تراجعت في الحظر بعد عدة ساعات، ورغم اعتذاري، لكن ردها البارد مسبوقًا بلقبي العلمي أنبأني أنها نهاية علاقة معقدة دامت لعدة أشهر هي الأجمل فيما عشت ....

كنت أتابعها منذ أن تخرجت في كلية التجارة وبدأت أولى محاولتها في الكتابة، وتعرفتها خلال إحدى حفلات التوقيع التي مثلها مثل باقي الفعاليات الأدبية لا يحضرها إلا كتاب لمجاملة كتَّاب آخرين. دائمًا هكذا

كتّاب بلا قرّاء .... وبينما كنت كعادتي صامت معظم الوقت بينما تلتقط عيناي وأذناي كل شيء، ثم ألخص كل ما يمكن أن يقال في كلمات معدودة مركزة، وأحيانًا عنيفة ناقدة...

بينما كانت **زينب** شيطانة مشاغبة حقيقية خلال الندوة، لم تترك مساحة لكي يكمل أي شخص كلماته، التي لابد أنه حضّرها وحفظها وجرب طريقة أدائها منذ الأمس. كانت **زينب** تقاطع... **زينب** تتدخل.... **زينب** تعترض.. تزوم... تثور.... تضحك.... تسخر.... حتى ضج منها الجميع.

كنت مبتسمًا في جلستي، وبداخلي أفكر أنني لو كنت أحد المنظمين لطردت تلك الفتاة من القاعة بعد نصف ساعة على الأكثر، وعندما قمت لإلقاء كلمتي كنت أنتظر أن تقوم

لتقاطعني، وكنت جاهزًا لإحراجها، وربما جعلها تجلس في دارها عدة أشهر على الأقل، لكنها لم تفعل، كأنها قرأت في أفكاري ما أنوي، لم تتكلم ولم تعترض ولم تسخر ... فقط كانت تفتح عينيها على اتساعهما كأنها تصطاد بهما الكلمات صيدًا مما جعلني لا إراديًا أتوجه إليها كأنني أخاطبها هي فقط؛ لأشرح لها ما التبس عليها وجعلها قلقة ثائرة منذ البداية...

ولما انتهت الندوة كنّا أنا وهي معًا نتوجه إلى مقهى زهرة البستان القريب لأحتسي القهوة، وتحتسي هي كل ما أخبرها به في انبهار...

كانت ثقافتها محدودة للغاية، لكن بداخلها تمرد على كل شيء، طالت جلستنا إذ عرضت عليَّ بعض القصص التي كتبتها مؤخرًا، فأفهمتها بصراحتي - التي تقترب من حد الوقاحة حين

يتطرق الأمر الى النقد والتذوق الأدبي- أنها تكتب بسذاجة وركاكة، وأن معينها الثقافي الذي تغترف منه محدود للغاية، تغيرت ملامحها امتعاضًا في بادئ الأمر، ثم لانت عندما استشعرت صدق توجهي بذكائها الأنثوي الفطري ...

في الصباح التالي صحوت على مكالمتها بطريقتها المتسرعة كالعادة، استغرق مني تذكرها عدة ثوانٍ، قررت هي فيهن أننا سنتقابل مساءً في نفس المكان، أكملت نومي واستيقظَت وفي ذهني فكرةً مشوشة عن موعد في وسط المدينة، وتذكرتها عند العصر.

تعددت لقاءاتنا التي صارت كورشة عمل مستمرة أقوم فيها مخلصًا بتدريبها على تقنيات الرواية والسرد الروائي وخلافه. وتابعت بنفسي خطة قراءتها لملء وعائها

الفارغ ... ومع الوقت تكونت رابطة لا أستطيع أن أسميها حبًا لكنه كان امتزاجًا مثاليا بين صعلوكين ... كنا في منزلي يومها حين قفزت إلى الفراش دون أن تخلع نعليها كعادتها، وهي تزقزق كعصفور فَرِح وتزف في حضني أولى رواياتها، كنت في شوق لالتهامها كما تَعَوَّدْتُ وعوّدتُها، في طقس شبه يومي، لكنها أصرت على أن أقرأ أولاً...

وقامت لتعد لي كوب الشاي الصباحي الذي أشربه ثقيلاً في (مج) يشبه (الجردل) الصغير ... أربعة (جرادل) من الشاي، وعدة فناجين من قهوة، علبة سجائر ... استغرقتني حتى انتهيت من القراءة، وهي جالسة عند قدمي، تتمسح في ساقي العارية كقطة جائعة ...

ألقيت الأوراق على الفراش ناظرًا لها في امتعاض:

- **هراء.**
- **ماذا؟**
- **هذا الذي أجبرتني على قراءته لا يمت للأدب بصلة، ولولا إصرارك ما أنهيت عشر صفحات.**
- **أنت تهذي أم تَهْزِر؟**
- **لا مزح ولا هزل في الأمر، فما هنالك إلا بعض (السهوكة) و(المحن) السمج ومواقف ساذجة، تم استهلاكها وهرسها في آلاف المسلسلات العربية.**

كانت تنظر لي بعينين تشبه أعين الزومبي في الأفلام الأمريكية، لو كان للزومبي تلك الدموع الأنيقة المتعلقة بأهدابها...

هممت باحتضانها إشفاقًا لكنها تحولت إلى قطة برية شرسة، ودفعتني في صدري لأسقط على

ظهري في وسط الفراش، بينما تلتقط الأوراق من جواري في غضب.

ولدى الباب التفتت وقالت في صوت بكائي خشن:

- **كنت أُكذِّب نفسي ... لكنك حقًا كما يقولون عنك، مجرد ظاهرة صوتية، لا تفعل شيئًا سوى التنظير الأجوف، والحقد على الناجحين كلما قرروا اتخاذ خطوة في طريقهم، بينما أنت تتظاهر بالسير (محلك سر).**

ثم في نظرة احتقار حقيقية قالت كأنما تبصق في وجهي:

- **أنا جد نادمة على كل ثانية مرت في صحبة فاشل حاقد مثلك.**

تركتني مذهولاً بينما غضبي يتصاعد من تلك الجاهلة المدعية، التي حسبتها صنفًا آخر غير القمامة الأدبية

التي تملأ الوسط المهترئ، كما اهترأ كل شيء في هذا الزمان التعس...

أول ما قمت به حين اعتدلت أن حظرت جميع حساباتها وألغيت أرقامها من عندي نهائيًا، وأنا انتظرُ أن تعود ضارعة نادمة، بعد أن عرفت مدى ما أجرمت به في حقي، وأقسمت وقتها أن أركل مؤخرتها الرائعة بسن حذائي القديم ...

في المساء انتابني بعض الندم، إذ ربما فعلت بنفسها شيئًا ما، فألغيت الحظر لأبحث عن شيء من أخبارها، ولكن لا شيء... أمضيت عدة دقائق أدور حولها متفحصًا، كتبت رسالة اعتذار على فظاظتي، وأنا أكاد أضرب نفسي بنفس الحذاء على تهوري في مسح أرقامها...

لكن الرد جاءني مقتضبًا باردًا سريعًا، ثم اتبعته بحظر جميع حساباتي فوريًا، رغم تجدد غضبي لكنني استرحت، فها هي تلك التافهة حية تسعى وتحظرني أيضًا ...

في الأشهر التالية خلعتها قسرًا من رأسي، وقررت أن أخرج أول رواياتي للنور، ولابد أن تكون عملاً غير مسبوق يخرس جميع الألسنة ...

حاولت تنحية أفكاري وأنا أكتب كلمة "تمت" وتاريخ الانتهاء، ومن الغد ستبدأ رحلة البحث المضنية عن دار نشر تقبلها ...

لكنني كنت أريد بشدة أن أسمع صوتها، أن أخبرها أنني فعلت شيئًا ما بدأ من كوني "ظاهرة صوتية لا تفعل شيئًا سوى التنظير والحقد" ...

بذلت جهدًا مضنيًا في البحث عن حساباتها حتى أصابني اليأس...

قمت لأعد لنفسي (جردلي) المعتاد من الشاي الثقيل، وقفت أرشفه أمام التلفاز المفتوح في صالة البيت، على اللا شيء فقط أحب أن يشعرني صوته بالونس...

كانوا يعرضون (تتر) مسلسل جديد لابد أنه يغص بالكثير من السهوكة والمحن ومواقف تم استهلاكها وهرسها في آلاف المسلسلات الأخرى...

ولكن شيئًا ما استوقفني، فسقط الكوب من يدي بينما تحركت قدماي تمشيان لاإراديا في مكانهما "محلك سر".

كانت الشاشة محلوءة بجملة مكتوبة بخط أنيق مزخرف:

قصة

الكاتبة الصاعدة بسرعة الصاروخ

زينب عز الدين

خاتمة

يبدو أنك قد وجدت في خلال غوصك في نهر حكاياتي، تداخلات وترابطات بين القصص المختلفة، فاعلم أنها ليست مصادفات، وليست تحذلق مني، أو تحاذق، كنت فقط ... أداعبك.

تمت

2018/8/8

عامر حجازي

	الحكاية	الصفحة
	إهداء	3
	إهداء	5
	تقديم	7
1	كيلة قمح	11
2	القبو	25
3	أنقاض	61
4	الجانب الأخر	75
5	ساديزم	95
6	ميجالومينيا (جنون العظمة)	99
7	التابوت	111
8	ماذا لو	157
9	محلك سر	163
	خاتمة	175

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه.
أو نقله بأي شكل من الأشكال أو تداوله الكترونيا نسخا
أو تخزينا دون إذن خطي من الدار